ميزان العمل

للامام الهمام حجة الاسلام أبي حامد محمد

ابن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

طبع على نفقة

الحائز المنصب عن الاسفار النافعة حضرة الشيخ

محيي الدين صبري الكردي

(حقوق الطبع محفوظة)

﴿ الطبعة الثانية ﴾

سنة ١٣٤٢

المطبعة العربية بمصر

ميزان العمل

للامام الهمام حجة الاسلام أبي حامد محمد

ابن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

طبع على نفقة

البحاثة المنقب عن الاسفار النافعة حضرة الشيخ

محيي الدين صبري الكردي

(حقوق الطبع محفوظة)

الطبعة الثانية

سنة ١٣٤٢

(المطبعة العربية)

مصر - شارع المزين بالموسكي

١٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام الهمام حجة الاسلام زين الدين أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد الغزالي الطوسي رضي الله تعالى عنه وأرضاه لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لاتنال الا بالعلم والعمل وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار وفرغنا منه وجب معرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقي * فافتقر ذلك أيضاً الى ميزان * فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة * ثم نبين أن لاطريق الى السعادة الا بالعلم والعمل * ثم نبين العلم وطريق تحصيله * ثم نبين العمل المسعد وطريقه * وكل ذلك بطريقة تترقى عن حد طريق التقليد الى حد الوضوح

لو استقصى بتحقيقه وطول الكلام فيه ارتقى الى حد البرهان على الشروط التي ذكرناها في معيار العلم * وان كنا لسنا نطول الكلام به ولكن نرشد الى أصوله وقوانينه *

﴿ بيان ان الفتور عن طلب السعادة حماقة ﴾

السعادة الاخروية التي نعني بها بقاء بلا فناء * ولذة بلا عناء * وسرور بلا حزن * وغنى بلا فقر * وكمال بلا نقصان * وعز بلا ذل * وبالجملة كل ما يتصور ان يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب * وذلك أبد الآباد على وجه لا تنقصه تصرم الاحقاب والآماد * بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرر وقدرنا طائراً يختطف في كل الف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرر ولم ينقص من أبد الآباد شيء * فهذا لا يحتاج الى استحثاث على طلبه وتقبيح الفتور فيه بعد اعتقاد وجوده اذ كل عاقل يتسارع الى أقل منه ولا يصرف عنه كون الطريق اليه متوعراً ومحوجا الى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من التعب هنا * فان المدة في احتمال التعب منحصرة والفائت فيها قليل * واللذات الدنيوية منصرمة منقضية * والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقدا في طلب اضعافه نسيئة — ولذلك ترى الخلق كلهم في التجارات والصناعات * وحتى في طلب العلم يحتملون من الذل والخسران والتعب والنصب ما يعظم مقاساته طمعاً في حصول لذة لهم في المستقبل تزيد على ما يفوتهم في الحال زيادة

محدودة فكيف لا يسمحون بترك في الحال لتوصل الى مزايا غير مقدرة ولا محدودة * ولم يخلق في الدنيا عاقل هو حريص على طلب المال كلف ببذل الدينار وانتظار شهر ليعتاض منه بعد مضي الشهر الاكسير الأعظم الذي يقلب النحاس ذهباً إبريزا إلا تسمح نفسه ببذله وان كان ذلك فواتا في الحال حتى ان من لم يحتمل ألم الجوع مثلا في مثل هذه المدة ليتوصل به الى هذه النعم الجسيمة لم يعد عاقلا ولعل ذلك لا يتصور وجوده في الخلق مع ان الموت وراء الانسان بالمرصاد * والذهب لا ينفع في الآخرة * وربما يموت في الشهر أو بعد الشهر بيوم فلا ينتفع بالذهب * وكل ذلك لا يفتر رأيه في البذل طمعاً في هذا العوض * فكيف يفتر رأي العاقل في مقاساة الشهوات في أيام العمر واقصاها مائة سنة والعوض الحاصل عنها سعادة لا آخر لها * ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة اضعف إيمانهم باليوم الآخر والا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلا عن الكامل *

﴿ بيان أن الفتور عن طلب الايمان به أيضاً حماقة ﴾

أقول ان فتور الايمان أيضاً مع أنه من الحماقة فليس يقتضي الفتور في سلوك سبل السعادة لولا الغفلة * فان الناس في أمر الآخرة أربع فرق (فرقة) اعتقدت الحشر والنشر والجنة والنار كما نطقت به الشرائع * وأفصح عن وصفه القرآن وأثبتوا اللذات

الحسيـــة التي ترجع الى المنكوح والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور اليه * واعترفوا بانه ينضاف الى ذلك أنواع من السرور * وأصناف من اللذات التي لايحيط بهـــا وصف الواصفين * فهي مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * وان ذلك يجري أبداً بلا انقطـاع * وأنه لاينال إلا بالعلم والعمل * وهؤلاء هم المسلمون كافة بل المتبعون للانبياء على الأكثر من اليهود والنصارى (وفرقة ثانية) وهم بعض الالهيين الاسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لايخطر على قلب بشر كيفيتها * وسموها لذة عقلية * وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج * ولكن أثبتوها على طريق التخيل في حالة النوم ولكن النوم يتكدر بالتنبه — وذلك لاتكدر له بل هو على التأبيد * وزعموا أن ذلك يثبت لطائفة من المشغوفين بالمحسوسات والذين التفات نفوسهم مقصور عليها ولا يسمون الى اللذات العقلية — وهذا لايفضي إلى أمر يوجب فتوراً في الطلب * فان الالتذاذ انما يقع بما يحصل في نفس الانسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعوم وغيره * والشيء الخارج سبب في حصول الاثر وليست اللذة من الاثر الخارج بل من الاثر الحاصل عند حضور الخارج * فاذا أمكن حصول الاثر في النفس دون الشيء الخارج كما في حالة النوم فلا أرب في الشيء الخارج (وفرقة ثالثة) ذهبوا الى انكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال * وزعموا ان التخيل

لايحصل الا بآلات جسمانية والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن الذي هو آلته في التخييل وسائر الاحساسات * ولا يعود قط الى تدبير البدن بعد ان اطرحه * فلا يبقى له الا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية * فان الانسان في هذا العالم أيضاً ميله الى اللذات العقلية * ونفرته عن الآلام العقلية أشد — ولذلك يكرهون في الطلب اراقة ماء الوجه ويؤثرون الاحتراز عن الافتضاح والاستتار في قضاء شهوة الفرج ومقاساة الآلام والمشقات * بل قد يؤثر الانسان ترك الطعام يوماً أو يومين ليتوصل به الى لذة الغلبة في الشطرنج مع حسيته ولذة الغلبة عقلية * وقد يهجم على عدد كبير من المقاتلين ليقتل ويعتاض عنه مايقدره في نفسه من لذة الحمد والوصف بالشجاعة * وزعموا ان الحسيات بالاضافة الى اللذات الكائنة في الدار الآخرة في غاية القصور * ويكاد يكون نسبتها اليها كنسبة ادراك رائحة المطعوم اللذيذ الى ذوقه ونسبة النظر في وجه المعشوق الى مضاجعته ومجامعته بل ابعد منه نسبة وزعموا ان ذلك لما بعد عن فهم الجماهير مثلت لهم تلك اللذات بما عرفوها من الحسيات كما ان الصبي يشتغل بالتعلم لينال به القضاء أو الوزارة وهو لايدرك في الصبي لذتها * فيوعد بامور يلتذ بها كثيراً (كصولجان) يلعب به أو عصفور يعبث به وأمثاله * وأين لذة اللعب بالعصفور من لذة الملك والوزارة * ولكن لما قصر فهمه عن درك الاعلى مثل بالاخس ورغب فيه

تلطفاً باستدراجه الى مافيه سعادته * وهذا أيضاً اذا صح فلا يوجب فتوراً في الطالب بل يوجب زيادة الجد * والى هذا ذهبت الصوفية والالهيون من الفلاسفة من عند آخرهم حتى أن مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا * وقالوا من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم * وانما مطلب القاصدين الى الله أمر أشرف من هذا * ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع (وفرقة رابعة) وهم جماهير من الحمقى لايعرفون باسمائهم ولا يعدون في زمرة النظار ذهبوا الى ان الموت عدم محض * وان الطاعة والمعصية لاعاقبة لها * ويرجع الانسان بعد موته الى العدم كما كان قبل وجوده * وهؤلاء لايحل تسميتهم فرقة فان الفرقة عبارة عن جمع وليس هذا مذهب جمع ولا منسوباً الى ناظر معروف بل هو معتقد أحمق بطال غلبت عليه شهوته * واستولى عليه شيطانه * فلم يقدر على قمع هواه * ولم تسمح له رعونته بأن يعترف بالعجز عن مقاومة الهوى * فيتعالل انقصانه بان ذلك واجب وانه الحق * ثم أحب ان يساعده غيره فدعا الى البطالة وما جبلت عليه النفس من اتباع الهوى الذي هو أشد حامل الاحمق على المسارعة الى التصديق به لاسيما وقد يحتال بعض الفسقة بنسبة هذا المعتقد الى معروف بدقائق العلوم كارسطوطاليس وأفلاطون أو الى فرقة كالفلاسفة * ويستدرج السامع بان معرفتك لاتزيد على معرفتهم *

وقد بحثوا زمانا وماتحصلوا على طائل ولا يشعر ذلك المسكين بتلبيسه فيصدقه لموافقته طبعه ولا يطالبه بالبرهان في نقل المذهب عمن نقله * ولو أخبره بأثر يتعلق به خسران درهم لكان لا يصدقه الا ببرهان ولو قال ان أباك أقر لفلان بعشرة الدراهم التي خلفها لك ومعه به سجل فيه خط الشهود لقال ما الحجة فيه واين الشاهد الحي الذي يشهد به * وأي خبر في السجل المكتوب وفي نقل الخطوط * ثم يصدقه في نقل مذهب من سماه من غير شاهدين يشهدان على سماعه * ومن غير عرض خط ذلك المذكور * ومن غير عرض تصنيف من تصانيفه ولو بخط غيره ثم لو سمع ذلك المذكور باذنه يصرح بذلك لكان ينبغي ان يتوقف في القبول زاعماً انه لا برهان عليه وان كان أخذه تقليداً * فتقليد الانبياء والاولياء والعلماء بل تقليد الجماهير والدهماء من الخلق أولى من تقليد واحد ليس معصوماً من الخطأ فانت الآن أيها المسترشد بعد ان عرفت هذه المعتقدات لا تخلو حالك في اعتقاد الفرقة الضالة عن اربعة أقسام * اما ان تكون قاطعاً ببطلانه أو ظاناً لبطلانه أو ظاناً لصحته ظناً غالبا ومجوزا لبطلانه بطريق الامكان البعيد أو قاطعاً بصحته وكيف ما كنت فعقلك يوجب عليك الاشتغال بالعلم والعمل والاعراض عن ملاذ الدنيا ان سلم عليك عقلك وصحت خبرتك وذلك لا يخفى ان كنت قاطعاً ببطلانه وان كنت تظن بطلانه ظناً غالباً تقاضاك عقلك التشمير في طلبه كما يتقاضى العقل تجشم

المصاعب في ركوب البحر لطلب الربح * وفي تعلم العلم في أول الشباب لطلب الرياسة عند من يطلبها * وفي نيل الوزارة أو باب من أبواب الكرامة بمقاساة مقدماتها * وعواقب تلك الامور مظنونة وليست مقطوعاً بها بل اذا غلب على ظن الحريص على الدنيا ان الكيميا له وجود ويحتمل عنده عدمها وعلم ان تعب شهر يوصله اليها ان كان لها وجود ثم يتنعم بها بقية عمره الذي يمكن أن يكون أقل من شهر وان يكون كثيرا تقاضاه عقله ان يحتمل التعب في ذلك الشهر ويستحقره وان كان معلوماً وعاجلا بالاضافة الى مايظنه وان كان آجلا ولم يكن مقطوعا به * وان كنت تظن صحته ظناً غالباً ولكن بقي في نفسك تجويز صدق الانبياء والاولياء وجماهير العلماء ولو على بعد * فعقلك أيضاً يتقاضاك سلوك طريق الامن واجتناب مثل هذا الخطر الهائل * فانك لو كنت في جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى في واحد من محارمه مثلا عملا من الاعمال تظن ظناً غالباً أنه يقع منه موقع الرضى فيعطيك عليه خلعة وديناراً ويحتمل احتمالا على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك ويديم عقوبتك طول عمرك * أشار عليك عقلك بان الصواب ان لا تقتحم هذا الخطر فانك ان فعلت وأصبت فزيته دينار لا يطول بقاؤه معك وان أخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طول عمرك فليس تفي ثمرة صوابه بغائلة خطئه * ولذلك اذا وجدت طعاماً وأخبرك جماعة

بانه مسموم أو شخص واحد حاله دون حال نبيّ واحد فضلا عن أن يقدر على التأييد بالمعجزة وغالب على ظنك كذبه كما غلب على ظنك الآن كذب الانبياء كلهم ولكن جوزت مع ذلك صدقه وعلمت أنه ليس في أكله الا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق وان كان مسموما ففيه الهلاك * فعقلك أيضاً يشير عليك باجتناب الخطر ان كنت من زمرة العقلاء * ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه لمن كان يشاغبه ويماريه في أمر الآخرة ان كان الامر على ما زعمت تخلصنا جميعاً * وان كان الامر كما قلت فقد هلكت ونجوت * ولا ينبغي ان تظن ان هذا تشكيك منه في اليوم الآخر ولكنه زجر على حد جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان وهو الذي جرأنا على سلوك هذا المنهاج ليسهل تأمله على أهل البطالة والتقصير في الطاعة لله تعالى * وقد تبين على القطع ان العظيم الهائل ان لم يكن معلوما فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر لان كون الشيء مستحقراً أو عظيما بالاضافة * فلتنظر الى منتهى العمر وما يصفو من الدنيا للمترفهين وتسير الى ما اعتقده الفرق الثلاث من كمال السعادة الاخروية ودوامها وتعرف بالبديهة استحقار ما ترك من الدنيا في عظيم ما يعتاض عنها بالاضافة اليها * وان كنت في الحالة الرابعة وهي اعتقاد صحة مذهب الفرقة الرابعة فنخاطبك على حد جهلك وقصورك بوجهين ﴿ أحدهما ﴾ انك لم تعتقد هذا المعتقد ببرهان حقيقي ضروري لا يمكن الغلط فيه

حتى يقال تنبهت لنوع من الدليل غفل عنه الانبياء والاولياء والحكماء وكافة العقلاء * فان الغلط اذا تطرق لهؤلاء مع كثرتهم وغزارة علومهم وطول نظرهم وكثرة معجزات أنبيائهم فماذا تأمن الغلط في اعتقادك وما الذي عصمك * وأقل درجاتك أن يجوز الغلط على نفسك * وان احتمل عندك صدق الجماهير وغلطك التحقت بالحالة الثالثة * وان لم تتسع نفسك لهذا التجويز حتى زعمت انك عرفت بطلان اعتقاد الجماهير واستحالة كون النفس جوهراً باقياً بعد الموت أو معاداً بطريق البعث والنشور كما عرفت أن الاثنين أكثر من الواحد وان السواد والبياض لا يجتمعان * فهذا الآن من سوء المزاج وركاكة العقل ويبعد مثل هذا الاحمق عن قبول العلاج ولمثل هذا قال الله تعالى فيهم (أولئك كالانعام بل هم أضل) ﴿ الوجه الثاني ﴾ ان هذه الفرقة وان أنكروا السعادة الاخروية فلم ينكروا السعادة الدنيوية * وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة والقدرة والسلامة من الغموم والهموم ودوام الراحة والسرور * وهذا ايضاً لا يفوز به الانسان الا بالعلم والعمل * أما العلم فليس يخفى دوام العز به اذ لا يقبل العزل والابطال بعزل الولاة وابطالهم * ولا يخفى لذة العالم في علمه وفيما ينكشف له في كل لحظة من مشكلات الامور لا سيما اذا كان في ملكوت السموات والارض والامور الالهية وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات * ثم انها اللذة لا نهاية لها لان

العلوم لا نهاية لها ولا مزاحمة فيها لان المعلومات تتسع للطلاب وان كثروا بل استئناس العالم يزيد بكثرة شركائه اذا كان يقصد ذات العلم لا حطام الدنيا ورئاستها * فان الدنيا هي التي تضيق بالمزاحمة بل يزداد سعة بكثرة الطلاب * ثم مع انها أوفى اللذات عند من أنس بها فهي أدومها اذ المنعم بها عليه هو الله وملائكته ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له — ولذلك لا ترى جماعة من الرؤساء والولاة الا وهم في خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء * وأما العمل فلسنا نعني به الا رياضة الشهوات النفسانية وضبط الغضب وكسر هذه الصفات لتصير مذعنة للعقل غير مستولية عليه ومستسخرة له في ترتيب الحيل الموصلة الى قضاء الاوطار * فان من قهر شهواته فهو الحرّ على التحقيق بل هو الملك — ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك ملكي أعظم من ملكك * فقال كيف قال ﴿ من أنت عبده عبدي ﴾ وأراد به انه عبد شهواته * وشهواته صارت مقهورة له فعبد الشهوات العاجز عن كسرها وقهرها رقيق وأسير بالطبع لا يزال في عناء دائم وتعب متواتران قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً ثم لا يخلو في قضائها عن اخطار وعلائق ومشاق يضطر الى تقلدها * فتقليل الشهوات تقليل لاسباب الغموم ولا سبيل الى اماطتها الا بالرياضة والمجاهدة وهو المراد بالعمل فاذاً العالم العامل أحسن الناس حالا عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا * فان الدنيا ليست

تصفو لاحد وليس يفي جدواها بشاقها * فالممعن في اتباع الشهوات والمعرض عن النظر في المعقولات شقي في الدنيا باتفاق وشقي في الآخرة عند الفرق الثلاث الا عند شرذمة من الحمقى لا يؤبه لهم ولا يعبأ بهم ولا يعدون في جملة العقلاء رأساً * فقد تبين ان الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضروري في العقل * وان المقصر فيه جاهل فان قلت فما بال أكثر الناس مقصرين فيه وهم مؤمنون بالآخرة

(فاعلم) أن سبب ذلك الغفلة عن التفكر في هذه الامور التي ذكرناها فان تلك الغفلة مطردة عليهم مستغرقة لاوقاتهم لا ينتبهون عنها ما دامت الشهوات متوالية وهي كذلك وانما المنبه عليها واعظ زكيّ السيرة * وقد خلت البلاد عنه وان فرض على ندور لم يلتفت اليه وان التفت اليه ووقع الاحساس به في الحال وحسن العزم على التجرد للطاعة في الاستقبال هجمت عقب ذلك شهوة من الشهوات وأزالت أثر التنبيه وأعادت حجاب الغفلة وعاد العاقل لما نهى عنه ولا يزال هكذا شأن كل واحد الى الموت * وعند ذلك لا يبقى له الا التحسر بعد الفوت * ولا يغني ذلك عنه شيئاً فنعوذ بالله من الغفلة فانها منشأ كل شقاوة *

﴿ بيان أن طريق السعادة العلم والعمل ﴾

فان قلت قد اتضح لي أن سلوك سبيل السعادة حزم العقلاء * والتهاون بها غفلة الجهال ولكن كيف يسلك الطريق من لا يعرفه * فماذا أعلم بأن العلم والعمل هو الطريق حتى اشتغل به فلك في معرفته طريقان (احدهما) جلي يناسب المنهاج السابق وهو ان تلتفت الى ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاث وقد أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا تحصل الا بالعلم والعمل جميعاً وان اتفقوا على أن العلم أشرف من العمل * وكأن العمل متمم له وسائق بالعلم الى أن يقع موقعه ولاجله قال الله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والكلم الطيب يرجع الى العلم عند البحث فهو الذي يصعد ويقع الموقع * والعمل كالخادم له يرفعه ويحمله * وهذا تنبيه على علو رتبة العلم * ومذهب الفرقة الاولى وهم المتمسكون بالمفهوم الاول للجماهير من ظواهر الشرع غير خاف على ربطه النجاة بالعلم والعمل وبيانه لا يمكن أن يحصى * والصوفية والفلاسفة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر على الجملة وان اختلفوا في الكيفية كلهم متفقون على أن السعادة في العلم والعبادة * وانما نظرهم في تفصيل العلم والعمل والتوقف مع هذا الاتفاق حمق * فمن استولت عليه علة واتفق كتب الاطباء وأقوالهم مع اختلاف أصنافهم على أن النافع لهذه العلة المبردات فتوقف المريض فيه سفه

في عقله بل يقتضي العقل المبادرة اليه * نعم ربما يكون له طريق بعد ذلك الى أن يتحقق ذلك لا عن تقليد للجماهير بل عن تحقيق لحقيقة العلة ووجه مناسبة المفردات لازالتها فينتهض بصيراً اذا نظر واستقل وترقى عن حضيض التقليد والاتباع الى ذروة الاستبصار — فكذلك قد ادعى الصوفية وفرق سواهم انه يمكن الوصول الى درك ذلك بالبصيرة والتحقيق وذلك أن تعرف حقيقة الموت وانه يرجع الى خروج الآلة عن الصلاح للاستعمال لا الى انعدام المستعمل (ثم تعلم) ان سعادة كل شيء ولذته وراحته في وصوله الى كماله الخاص به (ثم تعلم) أن الكمال الخاص بالانسان هو ادراك حقيقة المعقولات على ما هي عليه دون المتوهمات والحسيات التي يشاركه الحيوانات فيها (ثم تعلم) أن النفس بالذات متعطشة اليه * وبالفطرة مستعدة له * وانما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه مهما استولت عليه ومهما كسر الشهوة وقهرها وخلص العقل عن رقها واستعبادها اياه وأكب بالتفكر والنظر على مطالعة ملكوت السموات والارض بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من العجائب فقد وصل الى كماله الخاص * وقد سعد في الدنيا اذ لا معنى للسعادة الا نيل النفس كمالها الممكن لها وان كانت درجات الكمال لا تنحصر ولكن لا يشعر بتلك اللذة ما دام في هذا العالم ممنوعاً بالحس والتخيل وعوارض النفس كالذي عرض للمطعم الالذ وفي ذوقه خدر فيزول فيشعر باللذة

المفرطة * فالموت مثل زوال الخدر فقد سمعت متقدماً من متبوعي الصوفية يصرح بأن السالك الى الله تعالى يرى الجنة وهو في الدنيا والفردوس الاعلى معه في قلبه ان أمكنه الوصول اليه * وانما الوصول اليه بالتجرد عن علائق الدنيا والاكباب بجملة همته على التفكر في الامور الالهيـة حتى ينكشف له بالالهام الالهي جليها — وذلك عند تصفية نفسه عن هذه الكدورات * والوصول الى ذلك هو السعادة والعمل هو المعين على الوصول اليه * فهؤلاء فرقة ادعوا المعرفة بمناسبة العلم والعمل للسعادة — فهذا هو المنهج الثاني في الوصول الى اليقين * فما قالوه سديد وهو بزعمهم لا يعرف الا بالمجاهدة والرياضة كما قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فعليك بالمجاهدة والتجرد للطلب * فربما ينكشف لك حقيقة الحال بالنفي أو الاثبات ويكفيك في الشروع في العلم والعمل اتفاق الثلاث عليه اذ لم يكن غرضك من السؤال الجدال بل كان غرضك طلب الفوز كالمريض الذي يطلب الشفاء دون الجدال اذ بغيته اتفاق أصناف الاطباء فيه *

﴿ بيان تزكية النفس وقواها واخلاقها ﴾

(على سبيل المثال والاجمال)

فان قلت قد اتضح لي ان الاشتغال بالعلم والعمل واجب ولكن العلوم كثيرة وكذلك الاعمال فهي مختلفة بالنوع والمقدار *

وليس يكفي العلم بأن العلة يلائمها المبردات مالم يعلم نوع المبرد وقدره ووقت استعماله في الموالاة أو التفريق الى غير ذلك مما يتطرق الى تفاصيل اضطرارية فلا بد من بيان النوع وبيان الكمية ثم الكيفية في الاشتغال به

(فاعلم) ان الناس فيما سألته فريقان * قانع بالتقليد وهو مستغن عن البحث ولكن ينهج السبيل الذي رسمه له مقلده * وفريق آخر لايقلدون تقليد المريض للطبيب بل يتشوقون الى ان ينالوا رتبة الاطباء * والخطب في هذا عظيم والمدى طويل وشروط هذا الامر لاتظهر في الاعصار إلا لواحد فرد شاذ * ولكنا ننبئك بما يرقيك عن حضيض التقليد ويهديك الى سواء الطريق* فان ساعدك التوفيق وانبعث من نفسك داعية الاستتمام توصلت اليه بالمجاهدة ولا يمكنك معرفة ماتطلبه إلا بأن تعرف أولاً نفسك وقواها وخواصها فكيف يشتغل بمخالطة زيد من لايعرف زيداً والمجاهدة معالجة النفس بتزكيتها لتفضي الى الفلاح كما قال الله تعالى (قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) ومن لم يعرف الثوب لايتصور منه إزالة وسخه * ولما كان ملاك الامر معرفة النفس عظم الله أمره ونسبه الى نفسه تخصيصاً وإكراماً فقال تعالى (اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) فنبه على ان الانسان مخلوق من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالعقل والبصيرة لا بالحواس وأضاف جسده الى الطين وروحه الى نفسه

وأراد بالروح ماهنبيــــه بالنفس منبها لارباب البصائر ان النفس الانسانية من الامور الالهـية وانها أجل وأرفع من الاجسام الخسيسة الارضية ولذلك قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وقيل كان في كتب الله المنزلة إعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وقال عليه السلام (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيها على تلازم الامرين وان نسيان أحدهما مع نسيان الآخر ولذلك قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وقال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وما أراد به ظاهر الجسد فان ذلك يبصره البهائم فضلا عن الناس وعلى الجملة من جهل نفسه فهو بغيره أجهل ومن رحمة الله على عباده أن جمع في شخص الانسان على صغر حجمه من العجائب مايكاد بوصفه يوازي عجائب كل العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم ليتوصل الانسان بالتفكر فيها الى العلم بالله عز وجل فان قلت فصف لي من أمر النفس جملة مشوقة الى التفصيل ان لم تقدر على استقصاء القول فيه حذرا من التطويل (فاعلم) ان للنفس الحيوانية بالجملة قوتين احداهما محركة والاخرى مدركة والمحركة قسمان باعثة ومباشرة للحركة فالمباشرة للحركة هي القوة التي تنبث في الاعصاب والعضلات ومن شأنها ان تشنج العضلات فتجذب الاوتار والرباطات المتصلة بالاعصاب الى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الاعصاب والرباطات الى خلاف جهة

المبدأ وهذه خادمة للمحركة الباعثة * والمراد بالباعثة القوة النزوعية الشوقية التي تبعث على الحركة مهما حصل في الخيال صورة شيء مطلوب أو مهروب عنه فتحمل القوة المباشرة للحركة على التحريك ولهذه الباعثة شعبتان شعبة تسمى شهوانية وهي تبعث على تحريك يقرب من الاشياء التي يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طلباً اللذة والاخرى تسمى غضبية وهي قوة تبعث على تحريك يدفع به الشيء الذي يعتقد فيه انه ضار أو مفسد طلباً للغلبة (وأما المدركة) فقسمان ظاهرة وباطنة أما الظاهرة فهي الحواس الخمس ولسنا نخوض في تحقيقها وان كان القول في معرفة حقائقها طويلاً جداً ولكن غرضنا ذكر الجملة * وأما الباطنة فخمسة الاولى الخيالية وهي التي تبقى فيها صور الاشياء المحسوسة بعد غيبتها فان صورة المرئي يبقى في الخيال بعد تغميض العين فتلك القوة التي فيها انطبعت صورة المرئي تسمى خيالا وتسمى حسا مشتركا اذ يلتقي فيه اثر مدركات الحواس الخمس كلها * الثانية الحافظة لذلك فان ما يمسك الشخص به صورة الشيء غير ما يقبله به والشمع يمسك النقش بيبوسته ويقبله برطوبته والماء يقبله ولا يمسكه وهذه القوى أعني القابلة لمدركات الحواس الخمس والحافظة لها في التجويف الاول من مقدم الدماغ فهو مسكنها ويحاول آفة فيه تختل هذه القوة وعرف ذلك بعلم الطب (الثالثة) القوة الوهمية وهي قوة مترتبة في نهاية التجويف الاوسط من الدماغ يدرك معاني

غير محسوسة من المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة في الشاة بان الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه (الرابعة) الحافظة لهذه المعاني التي ليست محسوسة كما كانت الثانية حافظة للصور فهي حافظة المعاني وتسمى ذاكرة ومسكنها التجويف المؤخر من الدماغ ولقد بقي الاوسط وهو مسكن القوة المفكرة وهي مرتبة بين خزانة الصور وخزانة المعاني وشأنها ان تركب بعض مافي الخيال مع بعض وتفصل بعضها عن بعض بحسب الاختيار والعادة جارية بذكر هذا في القوى المدركة والاولى ان يذكر في جملة القوى المحركة اذ ليس لها ادراك شيء الا بنوع حركة بتفصيل مركب وتركيب منفصل مما هو حاصل في الخيال ولا يقدر على وضع شيء مستجد ليس هو موجودا في الخيال بحال الا بمجرد التفصيل والتركيب * وهذه القوى التي ذكرناها يشارك فيها الحيوانات الانسان الا المفكرة فان في الحيوانات شيأ يقاربه يسمى المتخيلة ولا تنتهي قوته الى حد قوة المتفكرة في الانسان (وأما النفس الانسانية) من حيث هي انسانية فينقسم قواها الى قوة عالمة وقوة عاملة وقد تسمى كل واحدة منهما عقلا ولكن على سبيل الاسم المشترك اذ العاملة سميت عقلا لكونها خادمة للعالمة مؤتمرة لها فيما ترسم فأما العاملة فهي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الافعال المعينة الجزئيـــة المختصة بالفكر والروية على ماتقتضيه القوة العالمة النظرية التي سنذكرها وينبغي ان يكون سائر

قوى البدن مقموعة مغلوبة دون هذه القوة العملية بحيث لا تنفعل هذه القوة عنها وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القوة واشارتها فان صارت مقهورة حدثت فيها هيآت انقيادية للشهوات تسمى تلك الهيآت اخلاقاً رديئة وان كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقا حسنا ولا يبعد ان يجعل الخلق اسما لما يحصل في سائر الشهوات والقوى من الانقياد والتأدب او هذه القوة من الاستيلاء والتأديب وبالجملة لا يبعد أن يكون الخلق واحداً وله نسبتان اذ هيئة الاستيلاء من هذه القوة يلازمها هيئة الانقياد من سائر القوى وهو المراد بالخلق المحمود وبالجملة فالنفس أعز من أن يدرك بالحواس الخمس بل تدرك بالعقل أو يستدل عليها بآثارها وأفعالها ولها نسبتان نسبة الى الجنبة التي تحتها ونسبة الى الجنبه التي فوقها ولها بحسب كل جنبة قوة بها ينتظم العلاقة بينها وبين تلك الجنبة فهذه القوة العملية هي القوة التي لها بالقياس الى الجنبة التي دونها وهي البدن وتدبيره وسياسته وأما القوة العالمة النظرية التي سنذكرها فهي لها بالقياس الى الجنبة التي فوقها لتنفعل وتستفيد منها أعني بالجنبة الملائكة الموكلة بالنفوس الانسانية لافاضة العلوم عليها فان العلوم إنما تحصل فيها من الله تعالى بواسطة قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فكأن للنفس منا وجهين وجه الى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه مستوليا غير

قابل البتة ولا منفعل عن عوارض البدن وشهواته ووجه الى الجنبة الشريفة العالية ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هنالك مستمداً التأثير فانها مهبط اسباب سعادته وهذه القوة النظرية العالمة هى التي من شأنها أن تتلقى المعاني الكلية المجردة عن العوارض التي تجعلها محسوسة جزئية كما ذكرنا معنى الكلي في كتاب معيار العلم ثم هذه القوة بالنسبة الى العلوم التي تحصل فيها على ثلاث مراتب (أولاها) كنسبة حال الطفل الى الكتابة فان الطفل فيه قوة للكتابة ولكن قوة بعيدة من الفعل فكذا قوة العلم له (المرتبة الثانية) ان يحصل فيها جملة من المعقولات الاولية الضرورية كحال الصبي المميز المراهق للبلوغ ويكون نحو هذه القوة للصبي بالاضافة الى الكتابة بعد ان عرف الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه لم يكن كذلك في المهد اذ ليس فيه على الكتابة الا قوة مطلقة بعيدة من الفعل (المرتبة الثالثة) ان تحصل المعقولات الكسبية كلها بالفعل وتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها ومهما رجع تمكن منها وحاله في العلوم حال الكاتب الحاذق الصانع الغافل عن الكتابة فانه مستعد لها بالقوة القريبة استعداداً في غاية الكمال وهذه نهاية الدرجة الانسانية . ولكن في هذه الرتبة درجات لا تحصى تختلف بكثرة المعلومات وبقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها وانها تحصل بالالهام الالهي وبتعلم واكتساب وانه سريع الحصول أو بطيء الحصول

وفي هذا العلم تتباين منازل العلماء والحكماء والاولياء والانبياء وبحسب التفاوت فيه تتفاوت مناصبهم ودرجات الرقي فيه غير محدودة ولا محصورة وأقصى الرتب درجة النبي الذى ينكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهي في أسرع وقت وهذه هي السعادة التي تحصل للانسان فتقربه الى الله تعالى تقريبا لا بالمكان والمسافة ولكن بالمعنى والحقيقة والادب يقتضي قبض عنان البيان في هذا المقام فقد انتهى الامر بطائفة الى ان ادعوا اتحادا وراء القرب فقال بعضهم سبحاني ما أعظم شاني وقال آخر أنا الحق وعبر آخر بالحلول وعبر النصارى باتحاد اللاهوت والناسوت حتى قالوا في عيسى صلوات الله عليه انه نصف الله * تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً وبالجملة فمنازل السائرين الى الله تعالى لا تنحصر وانما يعرف كل سالك المنزل الذي قد بلغه في سلوكه فيعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته الا بطريق الجملة والايمان بالغيب فلا يعرف حقيقة النبوة الا النبي وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما انفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف عاقل ما انفتح لاولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته (وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الالهي غير مضنون بها على أحد ولكن لا بد من الاستعداد

للقبول بتذكية النفس وتطهيرها عن الخبث والكدورة وكما ان الصورة المتلونة ليس فيها منع من أن تنطبع في الحديد الخبيث الا الحجاب من جهة الحديد في صدئه وخبثه وافتقاره الى صيقل يجلوه ويزيل خبثه ويجليه فهكذا ينبغي أن تعتقد أن الحجاب من جانبك لا من جانب الرحمة الالهية ولذلك قال عليه السلام (ان لربكم في أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها) ولذلك عبر عن غاية الجود والبذل من ذلك الجانب بأدل العبارات على الشوق والرغبة فقال ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول هل من داع فأستجيب له هل من مسترحم فأرحمه) وقال (طال شوق الابرار الى لقائي وأنا الى لقائهم أشد شوقاً) وقال (من تقرب الي شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة) وعليك أن تستقريء من القرآن والاخبار ما يناظر ذلك (١) فانه خارج عن الحصر والاحصاء

---

(١) فمن الاخبار (لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه الحديث) ومنها لولا ان الشياطين تحوم حول قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض

﴿ بيان ارتباط قوى النفس بعضها ببعض ﴾

اعلم ان هذه القوى متفاوتة الرتب فان بعضها أريدت لنفسها وبعضها أريدت لغيرها وبعضها خادمة وبعضها مخدومة والرئيس المطلق منها هى التي تراد لنفسها وتراد غيرها لها وليس ذلك الا الرتبة الاخيرة وفيها تتفاوت رتب الاولياء والانبياء فان الانسان لم يخلق الا لما هو من خاصيته وما عدا القوى المخصوصة بالنفس الانسانية يشاركها فيها الحيوانات فان الانسان خلق على رتبة بين البهيمة والملك وفيه جملة من القوى والصفات فهو من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على حائط واما خاصته التي لاجلها خلق قوة العقل ودرك حقائق الاشياء فمن استعمل جميع قواه على وجه التوصل بها الى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بان يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما قال (ان هذا الا ملك كريم) ومن صرف همته الى اتباع اللذات البدنية يأكل كما يأكل الانعام فقد نزل الى أفق البهائم فيصير اما غمراً كثور واما شرها كخنزير واما ضرعة ككلب واما حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد * وبالجملة من تصفح القوى التي ذكرناها عرف ان مقتضيات العقل من أرفعها واعلاها فينظر بعين التعجب كيف يخدم بعضها

لبعض خدمة ضرورية دليها فطرت ولا تستطيع مخالفة أمر الله تعالى فيها فان العقل هو الرئيس المخدوم ويخدمه وزيره وهو أقرب الاشياء اليه وهو العقل العملي الذي سميناه قوة عاملة بحسب مراسم العقل لان العقل العملي لاجل تدبير البدن والبدن آلة النفس ومركبها يقتنص به بواسطة الحواس مبادىء العلوم التي تستنبط منها حقائق الامور ثم العقل العملي يخدمه الوهم والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله * فالقوة التي بعده هي القوة الحافظة لما أدركه وأداه اليه والقوة التي قبله هي جميع القوى الحيوانية على الترتيب الذي سنذكره ومن جملتها المتخيلة أعني المفكرة ويخدمها قوتان مختلفتا المأخذ فالقوة الرغبية الشوقية تخدمها بالانبعاث لان انبعاثها الى الحركه (١) بالتخيل والفكر والقوة الحافظة للصور التي في الحس المشترك تخدمها بقبول التركيب والتفصيل فما فيها من الصور ثم هذان رئيسان لطائفتين * اما الحافظة للصور فيخدمها المشترك برفع الصور اليها حتى تحفظ * وأما القوة النزوعية فتخدمها الشهوة والغضب * والشهوة والغضب تخدمها القوة المحركة للعضل وعندها تنتهي القوى الحيوانية والقوى الحيوانية بالجملة تخدمها النباتية والنباتية ثلاث المولدة والمربية والغاذية ورأسها المولدة

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح لان انبعاثها الى التحريك فان الشوقية تبعث على التحريك لانها تتصف بمباشرة الحركة الجسمانية فتدبر انتهي مصححه

وتخدمها المربية والغاذية تخدمها ثم تخدم هذه قوى أربع وهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة اذ لا بد في النبات من قوة جاذبة للغذاء اليه ثم ماسكة ثم هاضمة تهضم ماأمسكته الماسكة ثم دافعة تدفع فضله والدافعـــة هي الخادمة التي لاخادم لها وكأنها كالكناس في نظام أمر البلد ثم الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تخدم القوى الهاضمة والجاذبة والماسكة والدافعة وهذه آخر درجات القوى في الاجسام وقد ضرب للقوى المذكورة مثال يقربها الى افهام العوام فقيل القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن وسط المملكة * والخيالية مسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده اذ مجتمع الاخبار عنده والحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خادمه * والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه * والعاملة جارية مجرى كاتبـــه * والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الاخبار الصادقة اللهجة فما يرفعونه من الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذي وكل به اذ البصر موكل بعالم الالوان والسمع بالاصوات وهكذا الجميع * فيرفعون هذه الاخبار الى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط مايراه حشواً ويرفع الباقي صافيا الى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه لخادمه الى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم باخراجه وكما ان الاعمال التي يتولاها الملك بنفسه أشرف مما يستعمل فيه غيره — فكذلك مايتولاه النفس التي هي الملك

بالحقيقة بواسطة المفكرة من الروية والاعتبار والقياس والفراسة واستنباط المجهول أشرف مما تستعمل فيه الخدم * وهـذا المثال قريب مما روي ان كعب الاحبار قال دخلت على عائشة فقالت الانسان عيناه مهاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فاذا طاب طاب جنوده [1] فقالت * هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فهذه جمل من أحوال النفس تلوناها عليك على سبيـل الاقتصار وانها بعض عجائب النفس * ولو نظرت في تشريح الاعضاء وفحصت عن عدد العروق والاعصاب والعضل والعظام والشرايين والاوردة ثم الى الاعضاء الآلية التي أعدت للنفس ولجذب الطعام ثم لهضمه ثم لدفعه والى الآلات التي خلقت للتناسل * ورأيت العجائب في خدمة بعضها بعضاً بالضرورة * ثم بعد فراغك من تشريح الاجسام نظرت في تفصيل قوى تلك الاجسام واستقصيته بمعرفة حقائق العلوم الطبيعية لقضيت منها آخر العجب * فتعساً لمن كفر بالله وغفل عن قوله (وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) بل في كل شيء دليل على انه واحد * ومن لم يؤمن بالله على الجملة فليس من العقلاء [2] وهو أخس من ان يخاطب

---

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح ثم قالت (٢) وهذا شبيه بما حكى عن ابي حنيفة وهو قوله لاعذر لاحد في الجهل بخالقه لما يرى من آثار قدرته

بمثل هذه الحكايات * وانما كلامنا مع من صدق بالجملة فندعوه الى البحث عن صنع الله ليزداد بسببه يقينه وايمانه ويتفاقم به تعظيمه واجلاله * فكل ما لا يدرك بالحواس وانما يدرك بالعقل بواسطة آثاره فسبيل استقصاء معرفته استقصاء النظر في آثاره بل نضرب مثالا يقرب من فهم الخلق كافة * فما من فقيه الا وقد اعتقد في المذكورين من العلماء مثل أبي حنيفة والشافعي وغيرهما رتبة تتقاضاه التعظيم — وهذا يشترك فيه الخلق ولكن ليس من يتصفح تصنيف مصنف فيرى فيه عجائب صنعه وبدائع حذقه يبقى اعتقاده في التعظيم على ما كان عليه قبل معرفته بل لا يزال يطلع على صفة غريبة له في كلامه وتصنيفه أو شعره ويزداد نفسه له تعظيما وتوقيراً واعتقاداً * فمن عرف ان الله صانع العالم كمن عرف ان زيدا متميز عن غيره بكونه ناظم ديوان ومصنف كتاب وأين هذا من اعتقاد من تصفح الشعر فرأى فيه عجائبه وطالع التصنيف وهو من أهل الفضل فرأى فيه غرائبه * فهذا يعتقد عظمته ورتبته اعتقاداً راسخاً عن تحقيق وبصيرة * والآخر يعتقد اعتقاداً مجملا ضعيفاً غير مدرك بالبصيرة والتحقيق — وهذا فرق بين رتبة العوام وذوي البصائر في هذا الامر الواحد والعالم بما فيه من العجائب تصنيف الله وتأليفه وابداعه واختراعه والنفس جزؤ من أجزاء العالم وكل جزء من أجزاء العالم مشحون بالعجائب فلا يزال الباحث عنها مستفيدا زيادة اعتقاد وتأكيد ايمان ولذلك

حثّ الله (١) على التفكر في الانفس والآفاق وملكوت السموات والارض *

﴿ بيان نسبة العمل من العلم وانتاجه السعادة التي اتفق عليها المحققون من الصوفية بأجمعهم وساعدهم من النظار طوائف سواهم ﴾

ان تأثير العمل لازالة مالا ينبغي والسعي في العلم سعي في تحصيل ماينبغي وازالة مالا ينبغي شرط لتفريغ المحل لما ينبغي والمشروط هو المقصود وهو اشرف من الشرط * ومثاله من أراد استيلاد امرأة بهاعلة تمنع العلوق فعليه وظيفتان (احداهما) اماطة العلة المفسدة للحمل المانعة من العلوق (والاخرى) ايداع النطفة بعد ازالة العلة المانعة * فالاولى شرط للثانية * والثانية هى الغاية المطلوبة * واذا فرضت داراً بنيت لملك رتبة تلك الدار نزول الملك فيها * وقد اغتصبها القردة والخنازير * فجمال تلك الدار وكمالها موقوف على أمرين (أحدهما) ازعاج القردة النازلين

(١) ومن ثم لما نزلت ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب قال عليه السلام ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها

فيها بغير حق (والآخر) نزول المستحق * واذا فرضنا مرآة صدئة قد ستر الخبث صفاها ومنع انطباع صورنا فيها * فكمال المرآة ان تستعد لقبول الصور فتحكيها كما هي عليها * وعلى مكانها وظيفتان (احداهما) الجلاء والصقال وهي ازالة الخبث الذي ينبغي ان لا يكون (والثانية) ان يحاذى بها نحو المطلوب حكاية صورته(١) فكذلك نفس الآدمي مستعدة لان تصير مرآة يحاذى بها شطر الحق في كل شيء فتنطبع به كأنها هو من وجه وان كانت غيره من وجه آخر كما في الصورة والمرآة وكمالها في مثل هذه الدرجة وهذه الخاصة التي فارقت بها ماعداها من الحيوانات اذ هذا الاستعداد مسلوب عن الحيوانات كلها سوى الآدمي بالقوة والفعل جميعاً كما انسلب عن التراب والخشب الاستعداد لحكاية الصور وان يكون مرآة لها وهو موجود بالفعل أبدا للملائكة لا يفارقها كما انه موجود للماء الصافي فانه يحكي الصورة بطبعه حكاية مخصوصة وهو موجود للآدمي بالقوة لا بالفعل * فان جاهد نفسه التحق بأفق الملائكة * وان استمر على الاسباب الموجبة لتراكم الخبث على مرآة النفس باتباع الشهوات إسودّ قلبه وتراكمت ظلمته وبطل بالكلية استعداده والتحق بأفق البهائم وحرم سعادته وكماله حرماناً أبدياً لا تدارك له فاذا العمل معناه كسر الشهوات

(١) قوله حكاية نائب فاعل لاسم المفعول قبله وهو لفظ المطلوب

بصرف النفس عن صوبها الى الجنبة العالية الالهية ليمحي عن النفس الهيئات الخبيثة والعلائق الردية التي ربطتها بالجنبة السافلة حتى اذا محقت تلك العلائق أو ضعفت حوذي بها نحو النظر في الحقائق الالهية ففاضت عليه من جهة الله تعالى تلك الامور الشريفة كما فاضت على الاولياء والانبياء والصديقين — وذلك صيد ينفق على قدر الرزق وباحكام الاصل فيه يزيد الاسترزاق كما يعرض من زيادة الاسترزاق بالاسباب في اقتناص الصيد بل في اقتناص الربح والتجارة بل في اقتناص فقه النفس * فان القايل بالاجتهاد قد يجاوز حد المجتهدين بزيد زكاء فطري فكذا طهارة النفس عن هذه العلائق في أول الفطرة في غاية الاختلاف * ثم الجهد أيضاً يختلف وينشأ من ذلك تفاوت لا ينحصر — فكذا سعادة الآخرة * ففيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب وهو عين السعادة التي للنفس بعد الموت ولكنها مشروطة بازالة العلائق ومحو الصفات الردية التي تأكدت للنفس باتباع الشهوات * فاذا العمل يرجع الى مجاهدة النفس بازالة مالا ينبغي * واذا نسب الى اتباع الشهوات ظهرت فضيلتها * واذا نسب الى تحصيل ما ينبغي كانت رتبتها منه مرتبة الشرط من المشروط والخادم من المخدوم وما أريد لغيره بالنسبة الى ما أريد لنفسه * وعليه نبه النبي صلى الله عليه وسلم اذ قال (الايمان بضع وسبعون باباً أدناها اماطة الاذى من الطريق)

والمجاهدة بالعبادات أكثر أغراضها اماطة الاذى عن الطريق * ولقائل أن يقول المراد بالحديث التقاط الزجاج والعظم والحجارة من الشوارع وان هذا هو السابق الى فهم الاكثرين * ولقائل آخر ان يقول ان الناس يتفاوتون في فهم معاني الالفاظ على حسب تفاوت رتبهم — ولذلك قال عليه السلام (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه) فلولا أن في الفاظه ما يسبق الى فهم غير الفقيه خلاف ما يسبق الى فهم الفقيه لما أكد الوصية بذلك * ثم ليت شعري اذا عينت الكثرة هل يوجد الحق في جانب الفقيه أو الافقه أو في جانب غيرهم * ولا شك ان هذا عزيز نادر والغالب خلافه * فالسابق الى فهم الجماهير يكاد الحق يجانبه وينحاز الى ما يفهمه الفقيه والافقه لا سيما في لفظ لا يصرح بالتخصيص فان لفظ الاذى عام ولفظ الطريق عام * ولو اريد الخاص لذكر الزجاج أو المدر ونبه به على أمثاله — وذلك الظاهر أيضاً مندرج تحت العموم فانه بذلك العمل أيضاً مصلح نفسه ومهذب خلقه ومميط عن النفس رذيلة الغفلة والقساوة وقلة الشفقة على ما سنذكره في تفصيل سوء الاخلاق وحسنها * فقد عرفت ان سعادة النفس وكمالها ان تنتقش بحقائق الامور الالهية وتتحد بها حتى كأنها هي وان ذلك لا يكون الا بتطهير النفس عن هيئات ردية تقتضيها الشهوة والغضب * وذلك بالمجاهدة والعمل فالعمل

للطهارة والطهارة شرط ذلك الكمال * ولذلك قال عليه السلام بني الدين على النظافة *

﴿ بيان مفارقة طريق الصوفية في جانب العلم ﴾

(طريق غيرهم)

اعلم ان جانب العمل متفق عليه وانه مقصود لمحو الصفات الردية وتطهير النفس من الاخلاق السيئة ولكن جانب العلم مختلف فيه وتباين فيه طرق الصوفية طرق النظار من أهل العلم فان الصوفية لم يحرّضوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون في البحث عن حقائق الامور بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكل الهمة على الله تعالى * ومهما حصل ذلك فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق وليس عليه الا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار النية مع الارادة الصادقة والتعطش التام والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة اذ الاولياء والانبياء انكشفت لهم الامور وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها لا بالتعلم بل بالزهد في الدنيا والاعراض والتبري عن علائقها والاقبال بكل الهمة على الله تعالى * فمن كان لله كان الله له حتى أن في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذا الطريق شاورت متبوعاً مقدماً من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن

فتنفعني وقال السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك الى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية بل تصير الى حالة يستوي عندك وجودها وعدمها * ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب مجموع الهمّ مقبلا بذكرك على الله تعالى * وذلك في أول الامر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى فلا تزال تقول (الله الله) مع حضور القلب وادراكه الى أن تنتهي الى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كان الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده * ثم تصير مواظباً عليه الى أن يمحى أثر اللسان فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على هذا الذكر من غير حركة اللسان * ثم تواظب الى أن لا يبقى في قلبك الا معنى اللفظ * ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة بل يبقى المعنى المجرد حاضراً في قلبك على اللزوم والدوام * ولك اختيار الى هذا الحد فقط * ولا اختيار بعده لك الا في الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة * ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك الا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للاولياء وهو بعض ما يظهر للانبياء فقد يكون أمراً كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر فان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وان يثبت امتدّ ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر امثاله على التلاحق وقد لا يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى لتفاوت خلقهم وأخلاقهم * فهذا منهج

الصوفية * وقد ردوا الامر الى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط * وأما النظار فلم ينكروا وجود هـذا الطريق وافضاءه الى المقصد وهو أكبر أحوال الاولياء والانبياء * ولكن استوعروا هذا الطريق واستبعدوا افضاءه الى المقصود * وزعموا أن محو العلائق الى ذلك الحد بالاجتهاد كالممتنع وان حصل في حالة فثباته أبعد منه وأدنى وسواس وخاطر يشوش * وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ويفضي الى الماليخوليا * فاذا لم تكن النفس قد ارتاضت بالعلوم الحقيقية البرهانية اكتسبت بالخاطر خيالات تظنها حقائق تنزل عليها * فكم من صوفي بقي في خيال واحد عشر سنين الى ان تخلص عنه ولو كان قد أتقن العلوم أولا لتخلص منه على البديهة * فالاشتغال بتحصيل العلوم بمعرفة معيار العلم وتحصيل براهين العلوم المفصلة أولى فانه يسوق الى المقصود سياقة موثوقا بها كما يوثق بالاجتهاد في أن يحصل فقه النفس * وقد كان عليه السلام فقيه النفس من غير اجتهاد لكن لو اراد مريد ان ينال رتبته بمجرد الرياضة فقد توقع توقعاً بعيدا فيجب تحصيل نفس العلوم الحقيقية في النفس بطريق البحث والنظر على غاية الامكان * وذلك بتحصيل ماحصله الاولون أولا * ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف للعلماء الباحثين عن الامور الالهية فما لم ينكشف للخلق اكثر مما انكشف * وهذا

تباين الفريقين * وقد خطر لي مثال لا يبعد أن يكون منبهاً للافهام الضعيفة المفتقرة الى الامثلة المحسوسة في درك الحقائق العقلية ومعرفاً لوجه الفرق بين الفريقين * فقد حكي أن أهل الصين والروم تباهوا بحسن صناعة النقش والتصوير بين يدي بعض الملوك * فاستقر رأي الملك على ان يسلم اليهم صفة ينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهم حجاب بحيث لا يطلع كل فريق على صاحبه فاذا فرغوا رفع الحجاب ونظر الى الجانبين وعرف رجحان من رجح من الفريقين ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الاصباغ الغريبة مالا ينحصر * ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صبغ وهم يجلون جانبهم ويصقلونه والناس يتعجبون من توانيهم في طلب الصبغ * فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين انا أيضاً قد فرغنا * فقيل لهم كيف فرغتم ولم يكن معكم صبغ ولا اشتغلتم بنقش * فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب وعلينا تصحيح دعوانا فرفعوا الحجاب واذا بجانبهم وقد تلألأ فيه جميع الاصباغ الرومية الغريبة اذ كان قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء وظهر فيه ما سعى في تحصيله غيرهم فقدر كأن النفس محل نقش العلوم الالهية * ولك في تحصيله طريقان (أحدهما) تحصيل عين النقش كطريق أهل الروم (والثاني) الاستعداد لقبول النقش من خارج والخارج ههنا اللوح المحفوظ ونفوس الملائكة فانها منقوشة بالعلوم الحقيقية نقشاً بالفعل على

الدوام كما ان دماغك منقوش بالقرآن كله ان كنت حافظاً له — وكذلك جملة علومك لا نقشا يحس ويبصر ولكن نوعا من الانتقاش عقلياً ينكره من اقتصرت به خساسة نفسه على المحسوسات ولم يترق عنها ☆

﴿ بيان الاولى من الطريقين ﴾

فان قلت فقد مهدت للسعادة طريقين متباينين فأيهما أولى عندك (فاعلم) أن الحكم في مثل هذه الامور بحسب الاجتهاد الذي يقتضيه حال المجتهد ومقامه الذي هو فيه ☆ والحق الذي يلوح لي والعلم عند الله فيه ان الحكم بالنفي أو الاثبات في هذا على الاطلاق خطأ بل يختلف بالاضافة الى الاشخاص والاحوال ☆ فكل من رغب في السلوك فقد كبر شأنه ☆ فالاولى به أن يقتنع بطريق الصوفية وهو المواظبة على العبادة وقطع العلائق فان البحث عن العلوم الكسبية لتحصل ملكة ثابتة في النفس شديد ولا يتيسر الا في عنفوان العمر ☆ والتعلم في الصغر كالنقش على الحجر ☆ ومن العناء رياضة الهرم ☆ وقيل لاحد الاكابر من أراد أن يتعلم شيخاً ما يفعل ☆ فقال اغسل مسحاً نعساه يبيض ☆ وقد خرج من هذا ان الاولى باكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذي يعرف به العمل فان الاكثر لا يتنبهون لهذا الامر في عنفوان الشباب وان تنبه في عنفوان شبابه نظر الى طبعه وزكائه ☆

فان علم انه لا يستعد لفهم الحقائق العقلية الدقيقة وجب عليه أن يشتغل بالعمل أيضاً فلا فائدة في اشتغاله بالعلوم النظرية وهم الاكثرون من الاول الذي تتبعناه فان كان زكياً قابلا للعلوم فان لم يكن في بلده أو في العصر مستقل بالعلوم النظرية مترق عن رتبة تقليد من سبقه فالاولى به العمل فان هذه لا يمكن تحصيلها الا بعلم فليس في القوة البشرية في شخص واحد الوصول اليها الا قليل بطول الزمن — ولذلك لو لم يكن علم الطب مثلا صار مقننا مرتبا متمنا بالخواطر المتعاونة في الازمنة المتطاولة لافتقر أزكى الناس الى عمر طويل في معرفة علاج علة واحدة فضلا عن الجميع * والغالب في البلاد الخلو عن مثل هذا العالم المستقل * فاذاً لم يبق الا قليل من قليل وهو زكى تنبه في عنفوان عمره لهذا الامر وهو مستعد لفهم العلوم وصادف عالما مستقلا بالعلوم تحقيقا لا اسما وحسبة لا رسما كما ترى أكثر العلماء * فهم اما مقلدون في أعيان المذاهب أو في أعيان المذاهب وأدلة تلك المذاهب جميعاً على الوجه الذي تلقوه من أرباب المذاهب * ومن قلد أعمى فلاخير في متابعة العميان واتباعهم * أو شاب نشأ في طلب العلم وهو زكى في نفسه وتنبهه بعد الارتياض بأنواع العلوم ولكن بهذا النوع من العلم الذي تنبه له * فمثل هذا الشخص مستعد للطريقين جميعاً * فالاولى به أن يقدم طريق التعلم فيحصل من العلوم البرهانية ما للقوة البشرية ادراكه بالجهد والتعلم فقد كفى المؤنة فيه تعب من قبله * فاذا

حصل ذلك على قدر امكانه حتى لم يبق علم من جنس هذه العلوم الا وقد حصله فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن هذا الخلق والاعراض عن الدنيا والتجرد لله وأن ينتظر فعساه ينفتح له بذلك الطريق ما التبس على سالكي هذا الطريق — هذا ما أراه والعلم عند الله * وقد يخرج منه ان الصواب لاكثر الخلق الاشتغال بالعمل * ومن العمل العلم العملي أعني ما يعرف به كيفيته . فان العلم العملي ليس بأشرف من العمل بل هو دونه فانه مراد له دون العلم الذي يراد منه المعلوم كالعلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالنفس وصفاتها * والعلم بملكوت السموات والارض وغيره * فهذه العلوم نظرية وليست بعملية وان كان قد ينتفع بها في العمل على سبيل العرض لا على سبيل القصد ولكون الصواب في العمل لاكثر الخلق استقصاه النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلا وتأصيلا حتى علم الخلق الاستنجاء وكيفيته ولما آل الامر الى العلوم النظرية أجمل ولم يفصل ولم يذكر من صفات الله الا انه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * نعم بعد اجمال العلم ذكر من تعظيمه وتشريفه وتقديمه على العمل مالا يكاد يحصى كقوله (تفكر ساعة خير من من عبادة سنة) وكقوله (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر) الى غير ذلك مما ورد فيه * ثم ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو اما أن يكون هو العلم بكيفية العمل وهو الفقه وعلم العبادات واما ان يكون علما سواه * وباطل ان يكون الاول هو المراد

لوجهين (احدهما) انه فضل العالم على العابد * والعابد هو الذي له العلم بالعبادة والا فهو عابث فاسق (والثاني) ان العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل لان العلم العملي لا يراد لنفسه وانما يراد للعمل وما يراد لغيره يستحيل ان يكون اشرف منه *

﴿ بيان جنس العلم والعمل الموصلين الى جنة المأوى ﴾

فان قلت العلوم أصنافها كثيرة والأعمال وأنواعها مختلفة وليس الكل مطلوبا فما الصنف النافع حتى أشتغل به (فأقول) أما العلم فينقسم الى العملي والنظري * أما النظري فكثير ولكن كل علم يتصور أن يختلف بالاعصار والبلدان والامم فلا يورث كما لا يبقى في النفس أبد الدهر ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها لتسعد بكمالها مبتهجة بما لها من البهاء والجمال أبد الدهر * فخرج عن هذا البيان العلم باللغات وموجبات الالفاظ كالعلم باللغة والاعراب والنحو والشعر والترسل وشرح الالفاظ وتفصيلها * فان افتقر الى شيء منها فيطلب لا لنفسه بل ليكون ذريعة للعلم المقصود لكننا الآن في بيان العلم المقصود فانا إن نعرف ذات الحج لم يلزمنا ذكر الخف والمطهرة وان كان يحتاج اليها في التوصل اليه * وانما نميز العلوم التي تبقى معلوماتها أبد الآبدين لا تزول ولا تحول * ومثل ذلك لا تختلف باختلاف الاعصار والامم — وذلك يرجع الى العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وملكوت

السموات والارض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث انها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها * فالمقصود الاقصى العلم بالله * وملائكة الله لا بد من معرفتهم لانهم واسطة بين الله وبين النبي — وكذا معرفة النبوة والنبي لان النبي واسطة بين الخلق والملائكة كما ان الملك واسطة بين الله والنبي — وهكذا يتسلسل الى آخر العلوم النظرية * وغايتها واقصاها العلم بالله عز وجل ولكن يتشعب القول فيه اشتعاباً كثيراً اذ يدل بعضها على بعض — ولذلك يكثر التفصيل فيه (القسم الثاني) العلم العملي وهو ثلاثة علوم علم النفس بصفاتها وأخلاقها وهو الرياضة ومجاهدة الهوى وهو أكبر مقصود هذا الكتاب وعلمها بكيفية المعيشة مع الاهل والولد والخدم والعبيد فانهم خدمك أيضاً كأطرافك وابعاضك وقواك * وكما لا بد من سياسة قوى بدنك من الشهوة والغضب وغيرهما فلا بد من سياسة هؤلاء * وعلم سياسة أهل البلد والناحية وضبطهم ولاجله يراد علم الفقه في الاكثر إلا مايتعلق بربع العبادات من جملة العبادات الخاصة بالنفس * ومنه آداب القضاء ولا يتم الا بمعرفة ربع النكاح والبيع والخراج * وأهم هذه الثلاثة تهذيب النفس وسياسة البدن ورعاية العدل من هذه الصفات حتى اذا اعتدلت تعدّت عدالتها الى الرعية البعيدة من الاهل والولد * ثم الى اهل البلد فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته * وما سواه يجري

منه مجرى الزكاة من النصاب والضوء من الشمس والظل من الشجر وكيف يتوقع استقامة الظل مع اعوجاج ذي الظل * فاذا لم يقدر الانسان على سياسة نفسه وضبطها فكيف يقدر على سياسة غيره * فهذه مجامع العلوم العملية * ولنذكر جمل العلم الاخص من هذه العلوم السياسية فانه المقصود بالبيان * ومجامع القوى التي لا بد من تهذيبها ثلاث * قوة التفكير وقوة الشهوة وقوة الغضب * ومهما هذبت قوة الفكر وأصلحت كما ينبغي حصلت بها الحكمة التي أخبر الله عنها حيث قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وثمرتها ان يتيسر له الفرق بين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الصدق والكذب في المقال وبين الجميل والقبيح في الافعال * ولا يلتبس عليه شيء من ذلك مع انه الامر الملتبس على أكثر الخلق * ويعين على اصلاح هذه القوة وتهذيبها ما أودعناه معيار العلم (والقوة الثانية) هي الشهوة وباصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش وتنقاد للمواساة والايثار المحمود بقدر الطاقة (والثالثة الحمية الغضبية) وبتهذيبها واصلاحها يحصل الحلم وهو كظم الغيظ وكف النفس عن التشفي ويحصل الشجاعة وهي كف النفس عن الخوف والحرص المذمومين في كتاب الله تعالى * ومهما أصلحت القوى الثلاث وضبطت على الوجه الذي ينبغي والى الحد الذي ينبغي وجعلت القوتان منقادتين للثالثة التي هي الفكرية العقلية فقد حصلت العدالة * وبمثل هذا العدل

قامت السموات والارض وهي جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن الخلق المحمود بقوله عليه السلام (أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا والطفهم بأهله) وقوله عليه السلام (أحبكم الي أحاسنكم اخلاقا الموطؤون اكنافا الذين يألفون ويؤلفون) وثناء الشرع على الخلق الحسن خارج عن الحصر ومعناه اصلاح هذه القوى الثلاث* وقد جمعه الله سبحانه في قوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فدل بالايمان بالله ورسوله مع نفي الارتياب على العلم اليقيني والحكمة الحقيقية التي لا يتصور حصولها الا باصلاح قوة الفكر * ودل بالمجاهدة بالاموال على العفة والجود اللذين هما تابعان بالضرورة لاصلاح الشهوة * ودل بالمجاهدة على الشجاعة والحلم اللذين هما تابعان لاصلاح الحمية واسلاسها للدين والعقل حتى تنبعث مهما انبعث وتسكن مهما سكن * وعليه دل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه السلام في تفسيره (هو ان تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك وتحسن لمن أساء اليك) فالعفو عمن ظلمك هو نهاية الحلم والشجاعة * واعطاء من حرمك هو نهاية الجود * ووصل من قطعك هو نهاية الاحسان *

﴿ بيان مثال النفس مع هذه القوى المتنازعة ﴾

مثل نفس الانسان في بدنه كمثل وال في مدينته ومملكته * وقواه وجوارحه الخادمة للبدن بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل * والشهوة له كعبد سوء يجلب الميرة والطعام * والحمية كصاحب شرطته والعبد الجالب للميرة مكار خداع خبيث ملبس يتمثل بصورة الناصح * وتحت نصحه الداء العضال والشر الشمر [1] وديدنه منازعة الوزير في التدبير حتى لا يغفل عن منازعته ومعارضته في آرائه ساعة * فكما ان الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته لوزيره معرضاً عن اشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلا باشارته على ان الصواب في نقيض رأيه وأدب صاحب شرطته وأسلسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سايساً ومأمورا ومدبراً لا آمرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم لقيام العدل بسببه كذلك النفس متى استعانت بالعقل وادبت الحمية الغضبية وسلطتها على الشهوة واستعانت بالعقل على الاخرى تارة بان تقلل من تيه الغضب وغلوائه بخلابة الشهوة وتقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها استشاطة

---

(١) الشمر بوزن الفلز الشديد قال في القاموس شر شمر بوزن فلز أي شديد انتهى مصححه

عليها اعتدلت قواه وحسنت اخلاقه * ومن عدل عن هذه الطريقة فهو كما قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم) وقال (واتبع هواه فمثله كمثل الكلب) وقال عليه السلام (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) وقال تعالى لمن قهر هواه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) وليس الامر كما ظنه فريق من لزوم قمع الغضب واماتته بالكلية وقلع الشهوة واماتتها بالكلية بل الواجب ضبطها وتأديبها فان العقل لا يقدر على التأديب دون الحمية الغضبيـــة اذ ليس له الا الاشارة بالصواب وهو اشرف القوى * وبه صار الانسان خليفة الله في أرضه ولكنه كطبيب مشير الى مافيه البر فان لم يستعن بالغضب والحمية التي ترهق الشهوة الى الطاعة وتنتهض خادمة للعقل في الزجر والكسر لم تفد اشارته — ولذلك لا يتبين فضيلة العقل لمن لا حمية له ولكن ينبغي أن يتأدب بحيث لا ينبعث الا باشارة العقل * وكذلك الشهوة فان اماتتها عن الجماع عسرة وقاطعة للتناسل الذي به بقاء النوع وعن الطعام صعب وينقطع به بقاء الشخص ولكن يكسر الشره في الطعام حتى لا يكون المقصود من الطعام التلذذ بالتناول بل استيفاء القوة للتوصل به الى العلم والعمل فيكون هو في أكله كهو في اعلافه دابتـه اذا انتهض للجهاد فمقصوده التوصل فقط ويود لو استغنى عن الطعام وبقيت قوته على العلم والعمل (مثال آخر) الانسان حيث خلق بنفسه عالماً كبيراً في

المعنى صغيراً في الحجم * فبدنه كمدينة وعقله كملك مدبر لها * وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده * واعوانه واعضاؤه كرعيته * والنفس الامارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في اهلاك رعيته * فصار بدنه كرباط وثغر * ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه وأسره وقهره على ما يجب حمد اثره اذا عاد الى حضرته تعالى كما قال (فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى) وان ضيع ثغره وأهل رعيته ذم اثره وانتقم منه عند لقاء الله تعالى * وقال الله يوم القيامة كما ورد في الخبر (يا راعي السوء اكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك) وهذا الجهاد ذكره باللسان مفرح وغذاء للروح * وتحقيقه بالعمل بالحقيقة هو نزع الروح * وان يعرف ذلك الا من طالب نفسه بترك شهواته * ولذلك قالت الصحابة رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فسموا مجاهدة الكفار بالسيف الجهاد الاصغر * وكذلك سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الجهاد افضل يا رسول الله فقال عليه السلام (جهادك هواك) ولذلك قال ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من ملك نفسه عند الغضب (مثال آخر) مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضا وكلبه مؤدباً معلما منقاداً صار حرياً بالنجح * ومتى كان هو في نفسه أحمق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً

فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعاً فهو خليق بان يعطب فضلا عن أن ينال ماطلب *

﴿ بيان مراتب النفس في مجاهدة الهوى ﴾

﴿ والفرق بين اشارة الهوى والعقل ﴾

اعلم ان للانسان في مجاهدة الهوى ثلاثة احوال (الاولى) أن يغلبه الهوى فيملكه ولا يستطيع له خلافاً وهو حال أكثر الخلق وهو الذي قال الله تعالى فيه (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) اذ لا معنى الاله الا المعبود * والمعبود هو المتبوع اشارته * فمن كان تردده في جميع أطواره خلف أعراضه البدنية واوطاره فقد اتخذ الهه هواه (الثانية) أن يكون الحرب بينهم سجالا تارة لها اليد وتارة عليها اليد — فهذا الرجل من المجاهدين * فان اخترمته المنية في هذه الحالة فهو من الشهداء لانه مشغول بامتثال قوله صلى الله عليه وسلم (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون اعداءكم) وهذه الرتبة العليا للخلق سوى الانبياء والاولياء (الثالثة) أن يغلب هواه فيصير مستوليًا عليه لا يقهره بحال من الاحوال وهذا هو الملك الكبير والنعيم الحاضر والحرية التامة والخلاص عن الرق ولذلك قال عليه السلام (ما من احد الا وله شيطان ولي شيطان وان الله قد اعانني على شيطاني حتى ملكته) وقال في حق عمر ماسلك عمر فجاً الا وسلك الشيطان فجا غيره * وهذا الآن منزلة

قدم * فكم من انسان يظن انه نال هذه الرتبة وهو في الحقيقة شيطان مريد فانه يتبع أغراضه ولكن يتعلل لاغراضه أنها من الدين وان طلبه لها لاجل الدين حتى رأيت جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس والقضاء والخطابة وأنواع الرياسة وهم فيه متبعون للهوى *ويزعمون أن باعثهم الدين ومحركهم طلب الثواب ومنافستهم عليها من جهة الشرع وهي نهاية الحمق والغرور * وانما يعرف حقيقة ذلك بأمر وهو ان الواعظ المقبول ان كان يعظ لله لا لطلب القبول وقصده دعوة الخلق الى الله * فعلامته انه لو جلس على مكانه واعظ أحسن منه سيرة وأغزر منه علما وأطيب منه لهجة وتضاعف قبول الناس له بالنسبة الى قبوله فرح به وشكر الله على اسقاط هذا الفرض عنه بغيره وبمن هو أقوم به منه كمن تعين عليه جهاد كافر وقتله لارتداده* فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته وكفى مؤنته والجهاد معه فرح به وشكر الله تعالى * وهذه الحالة لا يصادفها من نفسه الا الاولياء وتكون احدى آثارها الاحتراز باقصى الامكان كل ساعة وتصريحه بقوله اقتلوني فلست بخيركم كما نقل عن الصديق رضي الله عنه *فان قلت فاذا كنا لا نأمن مثل هذا التلبيس والخداع بتزوير الشيطان والتدلي بحبل الغرور كما حكي عن هؤلاء فبم نميز بين اشارة العقل واشارة الهوى (فاعلم) ان هذا مطلب عويص ولا خلاص منه الا بالعلوم الحقيقية ولا مغني فيه مثل ما أودعناه معيار العلم اذ به ينكشف التلبيس عن الحق ولكن القدر الذي ينبغي أن يفزع

اليه عند التحير أن يعلم أن العقل في أكثر الامر يشير بالاصلح للعواقب وان كان فيه كلفة ومشقة في الحال * والهوى يشير بالاستراحة وترك التكلف * فعلى عرض لك امر ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه * فاكثر الخير في الكراهة قال عليه السلام (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) فكلما يشير عليك بالدعة والرفاهية وحظر التكلف وايثار الراحة في الحال فاتهم فيه نفسك فان حبك الشيء يعمي ويصم * وبالجملة فما يشير اليه العقل بقوته افزع الى العبادة والاستخارة به حتى ينشرح الصدر ويعضده الاستشارة اذا استشير فيه أهله * وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة * والعقل يرشد بصحيح حقيقية والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام اثم شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير مموهة يشهد عليه العقل بانه متصنع متكلف * وبالجملة ادراك هذه الحقيقة لا يكون الا بنور الوحي وتأييد سماوي فليكن الفزع الى الله في مظان الحيرة * فقد قال بعض العلماء اذا مال العقل الى مؤلم في الحال نافع في العاقبة ومال الهوى نحو نقيضه الملذ في الحال المضر في العقبى وتنازعا وتحاكما الى القوة المدبرة المفكرة بادر نور الله تعالى الى نصرة العقل وادر وسواس الشيطان واولياؤه الى نصرة الهوى وتقام

صف القتال بينهما * فان كانت القوة المدبرة من حزب الشيطان وأوليائه ذهلت عن نور الحق وعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل وجنحت اليه وقهر أولياء الله وان كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بالعاجلة وطلبت الآجلة قال الله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وشبه الله العقل بشجرة طيبة والهوى بشجرة خبيثة فقال (الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) الآية فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أوليائه لا سبيل الا الى الفزع الى الله تعالى والاستعاذة من الشيطان الرجيم كما قال تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فان قلت فهل من فرق بين الهوى والشهوة * قلنا لا حجر في العبارات ولكن نعني بالهوى المذموم من جملة الشهوات دون المحمود * والمحمود من فعل الله تعالى وهي قوة جعلت في الانسان لتنبعث بها النفس لنيل ما فيه صلاح بدنه اما بابقاء بدنه أو بابقاء نوعه واصلاحهما جميعاً * والمذموم من فعل النفس الامارة بالسوء وهو استحبابها لما فيه لذتها البدنية ـــ وهذه الشهوة اذا غلبت سميت هوى فانها تستتبع المفكرة وتستخدمها لتستغرق وقتها في الامتثال لامرها * والمفكرة

مترددة بين الشهوة والعقل * يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها * فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن واذا مالت الى الشهوة تسفلت الى اسفل السافلين وولدت القبائح

﴿ بيان امكان تغيير الخلق ﴾

لقد ظن بعض المائلين الى البطالة أن الخلق كالخلق فلا يقبل التغيير والتفت الى قوله عليه السلام فرغ الله من الخلق وظن أن المطمع في تغيير الخلق طمع في تغيير خلق الله عز وجل وذهل عن قوله عليه السلام (حسنوا أخلاقكم) وان ذلك لو لم يكن ممكناً لما أمر به ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب فان الافعال نتائج الاخلاق كما أن الهويّ الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعي فلم يتوجه الملام الى أحدهما دون الآخر بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله وتغيير خلق البهائم ممكن اذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس والكلب من الاكل الى التأدب والفرس من الجماح الى السلاسة وكل ذلك تغيير خلق * والقول الشافي فيه ان ما خلق الله سبحانه قسمان قسم لا فعل لنا فيه كالسماء والكواكب بل أعضاء أبداننا وأجزائها وما هو حاصل بالفعل * والقسم الثاني ما خلق وجعلت فيه قوة لقبول كمال بعده اذا وجد شرط التربية * وتربيته قد تتعلق بالاختيار فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ولكنها قابلة بالقوة لان تصير نخلا

بالتربية وغير قابلة لان تصير تفاحا * وانما تصير نخلا اذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها — فلذلك لو أردنا ان نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه * وقد أمرنا بهذا وصار ذلك شرط سعادتنا ونجاتنا * نعم الجبلات مختلفة فبعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان (أحدهما) باعتبار التقدم في الوجود فان قوة الشهوة وقوة الغضب وقوة التفكر موجودة في الانسان * وأصعبها تغييراً وأعصاها على الانسان قوة الشهوة فانها أقدم القوى وجوداً وأشدها تشبثاً والتصاقا فانها توجد معه في أول الامر حتى توجد في الحيوان الذي هو جنسه * ثم توجد قوة الحمية والغضب بعده * وأما قوة الفكر فانها توجد آخراً والسبب انه يتأكد الخلق بكثرة العمل بموجبه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً مرضياً * والناس فيه أربع مراتب (الاولى) هو الانسان الغفل الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح فيبقى خالياً عن الاعتقاد وخالياً أيضاً عن تشمير شهواته [1] باتباع اللذات فهذا أقبل الاقسام للعلاج فلا يحتاج الا الى تعلم مرشد والى باعث في نفسه يحمله على الاتباع فيحسن خلقه في أقرب وقت (والثانية) ان يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له شر عمله يتعاطاه انقياداً لشهواته

(١) قوله تشمير شهواته اي تشديدها وتقويتها

واعراضاً عن صواب رأيه فأمره أصعب من الاول اذ تضاعفت علته فعليه وظيفتان (احداهما) قلع مارسخ فيه من كثرة التعود للفساد (والآخر) صرف النفس الى ضده وعلى الجملة هو في محل قبول الرياضة ان انتهض لها عن جد كامل (والثالثة) أن يعتقد الاخلاق القبيحة انها الواجبة المستحسنة وانها حق وجميل ثم تربى عليها — فهذا يكاد تمتنع معالجته وان يرجى صلاحه الا على الندور اذ تضاعفت عليه اسباب الضلال (الرابعة) أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد وتربيته على العمل به يرى فضله في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويتباهى به ويظن أن ذلك يرفع من قدره — وهذا اصعب المراتب وفي مثله قيل (من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل المسح ليبيض) (فالاول) من هؤلاء يقال له جاهل (والثاني) جاهل وضال (والثالث) جاهل وضال وفاسق (والرابع) جاهل وضال وفاسق وشرير *

﴿ بيان الطريق الجلي في تغيير الاخلاق ومعالجة الهوى ﴾

اعلم ان المقصود من المجاهدة والرياضة بالاعمال الصالحة تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهذيب اخلاقها * وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل في خزانة التخيل لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة وليس من غرضنا بيان تلك العلاقة ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه فان النفس ان كملت وكانت

زاكية حسنت افعال البدن وكانت جميلة ـ وكذا البدن ان جملت آثاره حدث منها في النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية * فاذاً الطريق الى تزكية النفس اعتياد الافعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة حتى اذا صار ذلك معتاداً بالتكرر مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الافعال وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير * فمن اراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه ان يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه فيصير بنفسه جواداً ـ وكذا من أراد ان يحصل لنفسه خلق التواضع وغلب عليه التكبر فطريقه في المجاهدة أن يواظب على افعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرر مع تقارب الاوقات * والعجب أن الامر بين النفس والبدن دور اذ بافعال البدن تكلفاً يحصل للنفس صفة * فاذا حصلت الصفة فاضت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذي تعوده طبعاً بعد ان كان يتعاطاه تكلفاً * والامر فيه كالامر في سائر الصناعات فان من أراد ان يصير له الحذق في الكتابة صفة نفسية ثابتة * فطريقه ان يتعاطى مايتعاطاه الكاتب الحاذق وهو حكاية الخط الحسن متكلفا متشبها * ثم لا يزال يواظب على تعاطي الخط الحسن حتى يصير له ذلك ملكة راسخة ويصير الحذق فيه صفة نفسانية فيصدر منه بالآخرة بالطبع ما كان يتكلفه ابتداء بالتصنع فكان

الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ولكن الاول متكلف والآخر بالطبع ـ وذلك بواسطة تأثر النفس ـ وكذلك من أراد ان يصير فقيه النفس فلا طريق له الا ممارسة الفقه وحفظه وتكراره وهو في الابتداء متكلف حتى ينعطف منه على نفسه وصف الفقه فيصير فقيه النفس بمعنى انه حصل للنفس هيئة مستعدة نحو تخريج الفقه فيتيسر له ذلك طبعاً مهما حاوله * وكذلك الامر في جميع صفات النفس وكما أن طالب رتبة الفقه لايحرم هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بزيادة ليلة ـ فكذلك طالب كمال النفس لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرمها بنقصان يوم ولكن تعطاله في يوم واحد يدعو الى مثله * ثم يتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل فيفوته فضيلة الفقه * فكذا صغائر المعاصي بعضها يدعو الى بعض وكما أن تكرار ليلة لايحس بأثره في تفقه النفس فانه يظهر شيئاً فشيئا مثل نمو البدن وارتفاع القامة — فكذلك الطاعة الواحدة قد لايحس اثرها في النفس وكالها في الحال ولكن ينبغي أن لايستهان بها فان الجملة مؤثرة وانما جمعت من الآحاد فلكل واحد تأثير * ثم مامن طاعة الا ولها اثر ما وان خفي — وكذلك المعصية وكم من فقيه مسوف يستهين بتعطيل يوم وليلة * وهكذا على التوالى فيفوته كمال العلم فكذا من يستهين بصغار المعاصي ينتهي به الامر الى حرمان السعادة وكم من فقيه موفق لايستهين بتعطيل يوم وليلة فهكذا على التوالى فيحرز كمال النفس

والعلم فكذا من لا يستهين بصغار المعاصي ينتهي به الامر الى درجات السعادة اذ القليل يدعو الى الكثير * ولذلك قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه الايمان يبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق يبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد * فاذا استكمل العبد النفاق اسود القلب كله *

﴿ بيان مجامع الفضائل التي بتحصيلها تنال السعادة ﴾

اذا عرف ان السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها وان تكميلها باكتساب الفضائل كلها فلا بد من ان يعرف الفضائل جملة وتفصيلاً * فاما الفضائل بجملتها فتنحصر في معنيين (أحدهما) جودة الذهن والتمييز (والآخر) حسن الخلق أما جودة الذهن فايميز بين طريق السعادة والشقاوة فيعمل به وليعتقد الحق في الاشياء على ما هي عليه عن براهين قاطعة مفيدة لليقين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخييلات مقنعة واهية * وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وان يتعود العادات الحسنة ويشتاق اليها فيؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه السلام (جعلت قرة عيني في الصلاة) ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع استثقال وكراهة فذلك لنقصان ولا ينال كمال السعادة به * نعم المواظبة عليه بالمجاهدة غاية الخير ولكن لا

بالاضافة الى فعله عن طوع ورغبة وانما قيل الحق مرّ بالاضافة الى من لم يتهذب * فبقي فيه صوارف عن الحق — ولذلك قال تعالى (وانها لكبيرة الا على الخاشعين) ولذلك قال عليه السلام ان استطعت أن تعمل في الرضى لله فاعمل والا ففي الصبر على ماتكره خير كثير * ثم لايكفى في نيل السعادة استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر * وكلما كان العمر اطول كانت الفضيلة ارسخ واكمل — ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة * قال طول العمر في طاعة الله — ولذلك كره الانبياء والاولياء الموت فان الدنيا مزرعة للآخرة * وكلما كانت العبادات اكثر بطول العمر كان الثواب اكثر والنفس ازكى واطهر وكملها اتم وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن اشد واوفر — وذلك اذا تنبه عن نومه الذي اغفله عن ادراك حال نفسه من جمال يبتهج به أوخزى وخيال يفتضح به — وذلك التنبه باطراح الشواغل * فالناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا * فهذه مجامع الفضائل وغايتها أن تصدر منه الفضائل أبداً بغير فكر وروية وتعب ويطلع على الحق بغير تعب طويل حتى كأنه يصدر منه وهو في غفلته كالصانع الحاذق في الخياطة والكتابة * وغاية الرزالة أن ترشح منه الرزائل بغير تكلف ولا فكر ولا روية (واعلم) ان هذه الفضائل المحصورة في فن نظري وفي فن عملي يحصل كل واحد منها على وجهين

(احدها) بتعلم بشريّ وتكلف اختياري يحتاج فيه الى زمان وتدرب وممارسة * ويتقوى الفضيلة فيه شيئاً فشيئاً خفي التدريج كتدريج الشخص في النمو وان كان في الناس من يكفيه ادنى ممارسة وذلك بحسب الزكاء والبلادة (والثاني) يحصل بجود الهيّ نحو ان يولد الانسان فيصير بغير معلم عالما كعيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا * وكذا سائر الانبياء الذين حصل لهم من الاحاطة بحقائق الامور مالم يحصل لطلاب العلم بالتعلم * وقيل ان ذلك قد يحصل أيضاً لغير الانبياء وهم الذين يعبر عنهم بالاولياء وهذا الآن رزق لايمكن اكتسابه بالجهد فمن حرم ذلك فليجتهد ان يكون من الفريق الثاني وليعلم نزول رتبته عن رتبة أولئك (فليس التكحل في العينين كالكحل) ولا ينبغي أن تستبعد أن يكون بالطبع في مبدأ الفطرة من العلوم ما يحصل بالجهد والاكتساب كما يكون ذلك في الاخلاق * فربّ صبي صادق اللهجة سخي جريء * وربما يخلق بخلافه — وذلك يحصل بالتأديب والتربية * فاذا الفضيلة تارة تحصل بالطبع وطوراً بالاعتياد (١) ومرة بالتعلم * فمن تضافرت في حقه الجهات الثلاث

(١) لا يخفى الفرق بين الاعتياد والتعلم على ازكياء الطلاب حيث ان الاول قد يكون غير مصحوب بعلم كحال الصبي الذي يعوده ابواه على شيء بلا دراية منه بحقيقة ذلك الشيء انتهى

مصححه

حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلما فهو في غاية الفضيلة * ومن كان رزلا من هذه الجهات الثلاث فهو في غاية الرزالة* وبينهما رتبة من اختلفت فيه هذه الجهات*

﴿ بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ﴾

ينبغي أن تعلم أن علاج النفس بمحو الرزائل عنها وبكسب الفضائل مثاله علاج الابدان بمحو العلل عنها وبكسب الصحة لها وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال — وانما تعتري العلة المغيرة للاعتدال بعوارض الاغذية وغيرها * فكذا كل مولود يولد على الفطرة * فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه * والمقصود أنه بالتعليم والاعتياد يكتسب الرزائل * وكما ان البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وانما يكمل بالنشوء والتربية بالغذاء — فكذلك النفس تخلق ناقصة وانما تكمل بالتزكية * وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم وكما ان البدن ان كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة فان كان مريضاً فشأنه جلب الصحة اليه فكذا النفس منك ان كانت زاكية طاهرة مهذبة الاخلاق فينبغي أن تسعى لحفظ صحتها وجلب مزيد قوة وصفاء اليها * وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى في جلبه اليها وكما ان العلة

المغيرة للاعتدال الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها ان كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس — فكذا الرزيلة الموجبة لنقصان النفس علاجها بضدها كما سبق من علاج الجهل بالتعلم والبخل بالتسخي تكلفاً والكبر بالتواضع تكلفاً والشره بالكف عن المشتهى تكلفاً * وكما ان كل مبرد لا يكفي لعلة أوجبتها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص * ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من عيار يعرف به مقدار النافع منه * فان لم يحفظ عياره زاد الفساد — فكذلك النقيض الذي يعالج به الاخلاق لا بد له من عيار * وكما ان عيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف ان العلة من حرارة أو برودة وان كانت الحرارة فما درجتها أهي ضعيفة أو قوية * فاذا عرف التفت معه الى أحوال البدن وأحوال الزمان والصناعة التى المريض بصددها وعالج بحسبها — فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين والمسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم * فاذا عرف ما هو الغالب على المريد من الخلق السيء وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه وما يحتمله من المعالجة عين له الطريق ولذلك ترى الشيخ يشير على بعض المريدين أن يخرج الى السوق للكدية * وذلك ان توسم فيه نوع رياسة وتكبر فيعالجه بما يراه ذلا وهو نقيض خلقه حتى ينكسر به تكبره

ويشير على بعضهم بتعهد بيت الماء واعداد نبل الاستنجاء* وذلك اذا رأى نفسه مائلة الى الرعونة في النظافة المجاوزة حد الاعتدال وقد يشير عليه بالصوم ويأمره بالوصال الا بمقدار يخرج به عن موجب النهي — وذلك اذا رآه شابا قوي الشهوة مولعاً بشهوة البطن والفرج الى غير ذلك من طرق التهذيب * وعن بعضهم انه كان يعالج قوة الغضب ويتكلف صفة الحلم فكان يعطي السفهاء الاجرة ليجبهوه بالشتم في المحافل فيتعود احتماله فصار بحيث يضرب به المثل في الحلم * وكان آخر يدرّج نفسه في الشجاعة فيركب البحر في الشتاء * وآخر كان يهيئ المآكل الطيبة ويطعمها غيره بحضرته وهو يقتصر على خبز الشعير لكسر الشره * وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليلة على رجل واحدة لا ينتقل عنها * وآخر عالج حب المال بأن باع كل ماله ورمى بثمنه في البحر * فهذا طريق جلي في تهذيب الاخلاق * والكلام في تفصيله يطول * والغرض أن تنظر أيها المتشوق الى تزكية نفسك في أخلاقك * فان كانت مهذبة فاحفظها وان كانت مائلة فقومها بالرد الى حد الاعتدال على ما سيأتي تفصيله * فان المقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين اذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التي تلحقها بعوارض البدن حتى لا تلتفت اليها بعد المفارقة عاشقة ومتأسفة على فوتها وممنوعة بالاشتغال والتألم بها عن السعادات اللائقة بجوهرها * ومهما أردنا أن لا يكون الماء

حارا ولا باردا طالبنا فيه الاعتدال وكان الفاتر لا حاراً ولا باردا *
فكذلك هذه الصفات * فان قلت فبماذا أعلم أن الحاصل لي هو
الخلق الجميل وهو الوسط المعتدل بين طرفي الافراط والتفريط *
فطريقك أن تنظر في الافعال التي يوجبها ذلك الخلق الذي فيه
مجاهدتك فاذا التذذت بفعله (فاعلم) أن الخلق الموجب له راسخ
في نفسك فان كان ذلك الفعل قبيحا (فاعلم) أن الخلق قبيح مثل
أن تلتذ بامساك المال وجمعه * فموجبه خلق البخل فعود نفسك
نقيضه والاخلاق الحسنة والسيئة قد نصلها الشرع ويجمعها ماصنف
في آداب النبي عليه السلام وهي مشهورة وسنشير الى جملها ونعني
بالاعتدال انك لو كنت تلتذ بالاسراف في تفريق المال فتعلم ان
هذا أيضاً مذموم وهو الذي يعبر عنه بالتبذير * والمحمود المعتدل
هو السخاء الواقع بين التمزق والتبذير وهو ان يتيسر عليك بذل
ما يقتضي الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك
امساك ما يقتضي الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة وكذا
في سائر الصفات والواحد منها كاف في المثال * واذا عرفت أن
معيار الاعمال مأخوذ من مقدار الصفات والاخلاق لم تخف عليك
ان الطريق في هذا تختلف باختلاف الاشخاص وتختلف في حق
شخص واحد باختلاف الاحوال * فمن رزق البصيرة تتبع العلة
وعالجها بطريقها * ولما كان أكثر الناس يعجزون عنه وعسر
على الشرع تفصيل يفي بجميع الاشخاص في جميع الاعصار اقتصر

الشرع في التفصيل على القوانين المشتركة التي تعم جدواها من الطاعات وترك المعاصي المحذورة ثم رغب عن المباحات التي تقصد للتلذذ بأمور جملية كقوله (حب الدنيا راس كل خطيئة) وأمثاله ثم عرف أهل البصيرة منه غاية المطلوب وطريقه وغاية المحذور وطريقه ووقفوا به على التفصيل وأرشدوا اليه من وفق لاتباعهم فكانوا نواباً عن الانبياء في تفصيل ما أجملوه وشرح ما مهدوه * ولذلك قال عليه السلام (العلماء ورثة الانبياء)

﴿ بيان أمهات الفضائل ﴾

الفضائل وان كانت كثيرة فتجمعها أربعة تشمل شعبها وأنواعها وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة * فالحكمة فضيلة القوة العقلية * والشجاعة فضيلة القوة الغضبية * والعفة فضيلة القوة الشهوانية * والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب * فبها تتم جميع الامور ولذلك قيل بالعدل [1] قامت السموات والارض * فلنشرح آحاد هذه الامهات ثم لنشرح بيانها وما ينطوي من الانواع تحتها * فاما الحكمة فنعني بها ما عظم الله تعالى في قوله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وما اراده رسول الله حيث قال (الحكمة ضالة المؤمن) وهي

(١) فان الانسان الذي هو عنوان مجموع العالم الاكبر لا تكمل حقيقته فيصير حقيقة جمعية كاملة الا بالعدالة فتدبر

منسوبة الى القوة العقلية وقد عرفت فيما سبق ان للنفس قوتين (احداهما) تلي جهة فوق وهى التى بها تتلقى حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملأ الأعلى وهى العلوم اليقينية الصادقة أزلا وأبدا لاتختلف باختلاف الاعصار والامم كالعلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وأصناف خلقه في العالم بل من جملة العلم أن النفى والاثبات لايصدقان على شئ واحد في حال واحدة وكذلك العلوم الحقيقية * فهذه العلوم هى الحكمة الحقيقية (والقوة الثانية) هى التى تلي جهة تحت أعنى جهة البدن وتدبيره وسياسته وبها تدرك النفس الخيرات في الاعمال وتسمى العقل العملي وبها يسوس قوى نفسه ويسوس أهل بلده وأهل منزله * واسم الحكمة لها من وجه كالمجاز لان معلوماتها كالزيبق تتقلب ولا تثبت فمن معلوماتها ان بذل المال فضيلة * وقد يصير رذيلة في بعض الاوقات وفى حق بعض الاشخاص — فلذلك كان اسم الحكمة بالاول أحق وهذا الثانى كالكمال والتتمة للاول — وهذه هى الحكمة الخلقية والاولى هي الحكمة العلمية النظرية ونعني بالحكمة الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية وتقدر حركاتها بالقدر الواجب فى الانقباض والانبساط وهى العلم بصواب الافعال وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان وهما الخب والبله فهما طرفا إفراطها وتفريطها * أما الخب فهو طرف افراطها وهو حالة يكون بها الانسان ذا مكر وحيلة باطلاق

الغضبية والشهوانية يتحركان الى المطلوب حركة زائدة على الواجب * وأما البله فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال وهى حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب ومنشأه بطؤ الفهم وقلة الاحاطة بصواب الافعال * وأما الشجاعة فهى فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع فى اقدامها واحجامها وهى وسط بين رذيلتيها المطيفتين بها وهما التهور والجبن * فالتهور طرف الزيادة عن الاعتدال وهى الحالة التي بها يقدم الانسان على الامور المحظورة التى يجب في العقل الاحجام عنها * وأما الجبن فطرف النقصان وهى حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الاقدام حيث يجب الاقدام * ومهما حصلت هذه الاخلاق صدرت منها هذه الافعال أي يصدر من خلق الشجاعة الاقدام حيث يجب وكما يجب وهو الخلق الحسن المحمود واياه أريد بقوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فلا الشدة في كل مقام محمودة ولا الرحمة * بل المحمود مايوافق معيار العقل والشرع * فمن حصل له ذلك فليحفظه بالمواظبة على أفعاله * ومن لم يحصل له فلينظر فان كان طبعه مائلا الى النقصان الذى هو الجبن فليتعاط أفعال الشجعان متكلفا مواظبا عليه حتى يصير له الاعتياد طبعا وخلقا فيفيض منه أفعال الشجعان بعد ذلك طبعا وان كان مائلا الى طرف الزيادة وهو التهور فليشعر نفسه بعواقب الامور وليعظم أخطارها وليتكلف الاحجام الى الاعتدال

أو ما يقرب منه فان الوقوف على حقيقة حد الاعتدال شديد ولو تصور ذلك لارتحلت النفس عن البدن وليس معها علاقة منه فكانت لاتتعذب أصلا بالتأسف على مايفوتها منه * وكان لا لا يتكدر عليها ابتهاجها بما يتجلى لها من جمال الحق وجلاله ولكن لما عسر ذلك قيل (وان منكم الا واردها) وقد رأى بعض المشايخ رسول الله في المنام فقال ما الذي أردت بقولك (شيبتني سورة هود) فقال قوله (فاستقم كما أمرت) يعني الاستمرار على الصراط المستقيم وطلب الوسط بين هذه الاطراف شديد وهو أدق من الشعر وأحد من السيف كما وصف من حال الصراط في الدار الآخرة ومن استقام على الصراط في الدنيا استقام على الصراط في الآخرة مستقيما اذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه * ولذلك وجب في كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله اهدنا الصراط المستقيم فانه أعقد الامور واعصاها على الطالب ولو كلف ذلك في خلق واحد اطال العناء فيه * وقد كلفنا ذلك في جميع الاخلاق مع خروجها عن الحصر كما سيأتي ولامخاص عن هذه المخاورات الا بتوفيق الله ورحمته ولذلك قال عليه السلام (الناس كلهم موتى الا العالمون والعالمون كلهم موتى الا العاملون * والعاملون كلهم موتى الى المخلصون والمخلصون على خطر عظيم) فنسأل الله تعالى ان يمدنا بتوفيقه لنجاوز الاخطار في هذه الدار ولا ننخدع بدواعي الاغترار وأما العفة فهي فضيلة القوة الشهوانية

وهي انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب اشارتها * ويكتنفها رذيلتان الشره والخمود * فالشره هو افراط الشهوة الى المبالغة في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها * والخمود هو خمود الشهوة عن الانبعاث الى ما يقتضي العقل نيله وتحصيله وهما مذمومان كما أن العفة التي هي الوسط محمودة * وعلى الانسان ان يراقب شهوته والغالب عليها الافراط لا سيما الى مقتضى الفرج والبطن والى المال والرياسة وحب الثناء * والافراط والتفريط في كل ذلك نقصان وانما الكمال في الاعتدال * ومعيار الاعتدال العقل والشرع وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلا بان يعلم أن شهوة الطعام انما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسد خلل ما ينحل من أجزائه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حيا والحواس سليمة ليتوصل بالبدن الى نيل العلوم ودرك حقائق الامور ويتشبه بالطبقة العليا بالاضافة اليه وهي رتبة الملائكة وبها كمالها وسعادتها * ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوي على العبادة دون التلذذ به فيقتصر ويقتصد لا محالة ولا يشتد اليه شرهه ويعلم ان شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة على الجماع الذي هو سبب بقاء النوع محفوظا ليطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع وان تمتع ولعب كان باعثه عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ودوام النكاح * ويقتصر من الانكحة على القدر الذي لا يعجزه

عن القيام بحقوقه * ومن عرف ذلك سهل عليه الاقتصار * وعند ذلك لا يقيس نفسه بصاحب الشرع عليه السلام اذ كان لا يشغله كثرة الانكحة عن ذكر الله تعالى ولا يلزمه طلب الدنيا لاجل الازواج * ومن ظن أن ما لا يضر صاحب الشرع لا يضره كان كمن ظن ان ما لا يغير البحر الخضم من النجاسات لا يغير كوزا مغترفا من البحر * وان ما لا يضر الشخص القوي البنية السوي من الاطعمة اللذيذة لا يضر الصبي الرضيع السخيف البنية * وكم من أحمق يتكايس فيقيس نفسه بصاحب الشرع مقايسة الملائكة بالحدادين فيهلك من حيث لا يدري نعوذ بالله من عمش البصيرة فانه يكاد يكون اردى من العمى اذ الاعمى يعتقد عجزه فيقلد فيهديه غيره * والاعمش ينفتح من بصيرته بقدر ما يستنكف به من الاتباع ثم لا يكمل نوره بحيث يستقل مستمرا في سواء السبيل * ومن هذه حاله لا يبالي الله في أيّ واد هلك * ولقد رأيت جماعة من الحمقى العوام يتكايسون في التصوف بآرائهم ويزعمون ان هذه الشهوات لم خلقت ان كان اتباعها مذموما ومهلكا ولم يعلموا أن تحت خلق الشهوتين أعني شهوة الفرج والبطن حكمتين عظيمتين (احداهما) ابقاء الشخص بالغذاء والنوع بالحرث فانهما ضروريتان في الوجود بحكم اجراء الله سنته بمشيئة الله الازلية التي لا يجد لها تبديلا ولا تحويلا (والثانية) ترغيب الخلق في السعادات الاخروية فانهم ما لم يحسوا بهذه اللذات

والآلام لم يرغبوا في الجنة ولم يحذروا النار ولو وعدوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لما أثر ذلك بمجرده في نفوسهم هذا حد العفة * وأما العدل فهو حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانقياد فليس هو جزءاً من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل فانه مهما كان بين الملك وجنده ورعيته ترتيب محمود بكون الملك بصيرا قاهراً وكون الجند ذوي قوة وطاعة وكون الرعية ضعفاء سلسى الانقياد قيل ان العدل قائم في البلد وان ينتظم العدل بان يكون بعضهم بهذه الصفات دون كلهم — وكذلك العدل في مملكة البدن بين هذه الصفات * والعدل في اخلاق النفس يتبعه لامحالة العدل في المعاملة والسياسة ويكون كالمتفرع منه ومعنى العدل الترتيب المستحب * اما في الاخلاق واما في حقوق المعاملات واما في اجزاء مابه قوام البلد * والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتي الغبن والتغابن وهو أن يأخذ ماله اخذه ويعطي ماله أن يعطى * والغبن أن يأخذ ماليس له * والتغابن أن يعطي في المعاملة ماليس عليه حمد وأجر * والعدل في السياسة ان ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل الترتيب أجزاء النفس حتى يكون المدينة في ائتلافها وتناسب أجزائها وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شيء موضعه وينقسم سكانه الى مخدوم لايخدم والى خادم ليس بمخدوم والى طبقة يخدمون من

وجه ويخدمون من وجه آخر كما ذكرناه في قوى النفس * ولا يكتنف العدل رذيلتان بل رذيلة الجور المقابلة له اذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط * وبمثل هذا الترتيب والعدل قامت السموات والارض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والاجزاء واذ قد ذكرنا جملة هذه الامهات فلنذكر تفصيل ماينذرج تحت كل فضيلة ورذيلة من أنواع الفضائل والرذائل مبتدئين فيه بالقوة العقلية ثم الغضبية ثم الشهوانية ليكون ذلك أشفى في البيان *

﴿بيان ما يندرج تحت فضيلة الحكمة ورذيلتيها من الخب والبله﴾

أما الحكمة فيندرج تحت فضيلتها حسن التدبير وجودة الذهن ونقاية الرأي وصواب الظن * أما حسن التدبير فهو جودة الروية في استنباط ماهو الاصلح والافضل في تحصيل الخيرات العظيمة والغايات الشريفة مما يتعلق بك أو تشير به على غيرك في تدبير منزل أو مدينة أو مقاومة عدو ودفع شر * وبالجملة في كل أمر متفاقم خطير فان كان الامر هيناً حقيراً سمي كيساً ولم يسم تدبيراً * وأما جودة الذهن فهو القدرة على صواب الحكم عند اشتباه الآراء وثوران النزاع فيها وأما نقاية الرأي فهو سرعة الوقوف على الاسباب الموصلة في الامور الى العواقب المحمودة * وأما صواب الظن فهو موافقة الحق لما تقتضيه المشاهدات من غير استعانة بتأمل الأدلة وأما رذيلة الخب فيندرج تحتها الدهاء

والجربزة * فالدهاء هو جودة استنباط ماهو أبلغ في اتمام مايظن صاحبه انه خير وليس بخير في الحقيقة ولكن فيه ربح خطير * فان كان الربح خسيساً سمي جربزة * فالفرق بين الدهاء والجربزة يرجع الى الحقارة والشرف * وأما رذيلة البله فتندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون * فاما الغمارة فهي قلة التجربة بالجملة في الامور العملية مع سلامة التخيل * وقد يكون الانسان غمراً في شيء دون شيء بحسب التجربة * والغمر بالجملة هو الذي لم تحنكه التجارب (وأما الحمق) فهو فساد أول الرؤية فيما يؤدي الى الغاية المطلوبة حتى ينهج غير السبيل الموصل * فان كان خلقة سمي حمقاً طبيعياً ولا يقبل العلاج (١) وقد يحدث عند مرض فيزول بزوال المرض (وأما الجنون) فهو فساد التخيل في انتقاء ماينبغي أن يؤثر حتى يتجه الى ايثار غير المؤثر * فالفاسد من الجنون غرضه * ومن الاحمق سلوكه اذ غرض الاحمق كغرض العاقل — ولذلك لا يعرف في أول الامر الا بالسلوك الى تحصيل الغرض والجنون هو فساد الغرض — ولذلك يعرف في أول الامر *

﴿ بيان مايندرج تحت فضيلة الشجاعة ﴾

وهو الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار * أما الكرم فهو وسط بين البذخ والنذالة

(١) لعل المراد عسر العلاج والا فالانسان له أصل الاستعداد لاي كمال

وهو طيب النفس بالانفاق في الامور الجليلة القدر العظيمة النفع *
وقد يسمى حرية * وأما النجدة فهو وسط بين الجسارة والانخذال
وهو ثقة النفس عند استرسالها الى الموت مهما وجب ذلك من غير
خوف * وأما كبر النفس فهو وسط بين التكبر وصغر النفس وهو
فضيلة يقدر بها الانسان أن يؤهل نفسه للامور الجليلة مع استحقاره
لها وقلة مبالاته بها ابتهاجا منه بقدر نفسه وجلالتها * وأثره أن
يقل سروره بالاكرام الكبير من العلماء ولا يسر باكرام الاوغال
ولا بالامور الصغار ولا بما يجري مجرى البخت والاتفاق من
السعادات * وأما الاحتمال فهو وسط بين الجسارة والهلع وهو
حبس النفس عن مسايرة المؤذيات وأما الحلم فهو وسط بين الاستشاطة
والانفراك وهي حالة تكسب النفس الوقار * وأما الثبات فهو شدة
النفس وبعدها من الخور * وأما الشهامة فهو الحرص على الاعمال
توقعاً للجمال وأما النبل فهو سرور النفس بالافعال العظام * وأما
الوقار فهو وسط بين الكبر والتواضع وهو أن يضع نفسه موضع
استحقاقها لمعرفته بقدرها * وأما رذيلتا الشجاعة وهما التهور والجبن
فيندرج تحتهما البذخ والبذالة والجسارة والنكول والتبجح وصغر
النفس * والهلع والاستشاطة والانفراك والتكبر والتخاسس والعجب
والمهانة * فما يميل منها الى جانب الزيادة فهو تحت التهور * وما
يميل الى جانب النقصان فهو تحت الجبن فاما البذخ فهو الانفاق
فيما لا يجب من الزينة وغيرها طالبا للصلف * وأما البذالة فهي الدناءة

وترك الانفاق فيما يجب والافتخار بالاشياء الصغار *وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لاتجب الاستهانة * وأما النكول فهو الانقباض فيما لايجب عنه الانقباض خوفا من الهلاك *وأماالتبجح فهو تأهيل النفس للامور الكبار من غير استحقاق * وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق * وأما الجسارة فهو قلة التأثر باسباب الهلاك من غير أثر جميل تقتضيه * وأما الهلع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات * وأما الاستشاطة فهو سرعة الغضب وحدته * وأما الانفراك فهو بطؤ الغضب وبلادته وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها * وأما التخاسس فحط النفس في الكرامة والتوقير الى مادون قدرها * فان كان على الوجه الواجب سمي تواضعاً محموداً * والمولد للكبر هو العجب وذلك جهل الانسان بمقدار نفسه وظنه انها على رتبة عالية من غير أن يكون كذلك * وذم الناس للتكبر والبخل أشد من ذمهم للتخاسس والتبذير فانهما في غاية القبح — وهذان وان كانا مذمومين فهما شبيهان بالسخاء والتواضع * وربما يدق الفرق بينهما فيظن أنهما محمودان وهما رذيلتان بالحقيقة مائلتان عن الوسط — ولذلك قال عليه السلام (طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة)

﴿ بيان مايندرج تحت فضيلة العفة ورذيلتيها ﴾

أما فضائل العفة فهي الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والهدو والورع والطلاقة والمساعدة والتسخط والظرف * أما الحياء فهو وسط بين الوقاحة والخنوثة * وقيل في حده انه ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة * وقيل انه خوف الانسان من تقصير يقع فيه عند من هو أفضل منه وقيل انه رقة الوجه عند اتيان القبائح وتحفظ النفس عن مذمومة يتوجه عليها الحق فيها * وبالجملة فانه يستعمل في الانقباض عن القبيح ويستعمل في الانقباض عما يظنه المستحي قبحاً — وهذا الاخير يليق بالصبيان والنساء وهو مذموم من العقلاء * والاول جميل من كل أحد والمراد بقوله (ان الله يستحي من ذي شيبة في الاسلام أن يعذبه) أنه يترك تعذيبه * وأما الخجل فهو فترة النفس [1] لفرط الحياء وانما يحمد في الصبيان والنساء دون الرجال * وانما يستحي الانسان ممن يكبر في نفسه * فاما ان يستحي من الناس فنفسه أخس عنده من غيره ومن لا يستحي من الله فلعدم معرفته لجلاله ولذلك قال عليه السلام (استحيوا من الله حق الحياء) ولذلك

---

(١) قوله فترة النفس أي انكسارها وضعفها قال في المختار الفترة الانكسار والضعف انتهى مصححه

قال تعالى (أو لم يعلم بان الله يرى) فانه مهما أحس في نفسه ان الله يراه فيستحي لامحالة ان كان متدينا معظما كما قال عليه السلام (لا ايمان لمن لا حياء له) لان الحياء للانسان هو أول أمارات العقل * والايمان آخر مراتب العقل * وكيف ينال المرتبة الاخيرة من لم يجاوز الاولى * وأما المسامحة فهو التجافي عن بعض الاستحقاق باختيار وطيب نفس وهو وسط بين المناقشة والاهمال * وأما الصبر فهو مقاومة النفس للهوى واحتماؤها عن اللذات القبيحة * وأما السخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير وهو سهولة الانفاق وتجنب اكتساب الشيء من غير وجهه * وأما حسن التقدير فهو الاعتدال في النفقات احترازاً عن طرفي التقتير والتبذير * وأما الدماثة فهو حسن هيئة النفس الشهوانية في الاشتياق الى المشتهيات وأما الانتظام فهو حال للنفس يدعوها الى نظر مايقدره من النفقات حتى يناسب بعضها بعضا * وأما حسن الهيئة فمحبة الزينة الواجبة التي لارعونة فيها * وأما القناعة فحسن تدبير المعاش من غير خبث * وأما الهدو فسكون النفس فيما تناله من اللذات الجميلة * وأما الورع فوسط بين الرياء والهتكة وهو تزيين النفس بالاعمال الصالحة الفاضلة طلبا لكمال النفس وتقربا الى الله دون الرياء والسمعة * وأما الطلاقة فهو المزاح بالادب من غير فحش وافتراء وهو وسط بين الافراط والتفريط في الجد والهزل * وأما الظرف فهو وسط بين التقطيب الذي هو الافراط في التحاشي

وبين الهزل وهو أن يعرف الانسان طبقات الجلساء ويحفظ أوقات الانس ويعطي كلاً ما هو أهله من المباسطة في الوقت معه * ولما كان الانسان مفتقراً الى استراحة ضرورية ترويحاً للقلب لم يكن بدّ من نوع من العشرة * والدعابة مستطابة غير مترقية الى الهزل لكن بمقدار ما يفارق به الانسان حد التوحش وسيرة الجفاة غير مجاوز الى دأب المساخر في المضحكات * وقد نقل من دعابة رسول الله وأصحابه ما ينبه على جنسه ولسنا نطول به * وأما المسامحة فهو وسط بين الشكاسة والملق وهو ترك الخلاف والانكار على المعاشرين في الامور الاعتيادية ايثارا للتلذذ بالمخالطة * وأما التسخط فهو وسط بين الحسد والشماتة وهو الاغتمام بالخيرات الواصلة الى من لم يستحقها والشرور التي تلحق من لا يستحقها * وأما الرذائل المندرجة تحت رذيلتي العفة فهي الشره وكلال الشهوة والوقاحة والتخنث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والكزازة والمجانة والعبث والتحاشي والشكاسة والملق والحسد والشماتة فاما الوقاحة فلجاج النفس في تعاطي القبيح من غير احتراز من الذم * وأما التخنث فحال يعتري النفس من افراط الحياء يقبض النفس عن الانبساط قولا وفعلا * وأما التبذير فافناء المال فيما لا يجب وفي الوقت الذي لا يجب فيه وأكثر مما يجب * وأما التقتير فهو الامتناع من انفاق ما يجب وسببه البخل والشح واللؤم ولكل واحد من هذه الثلاثة رتبة * أما البخيل فهو الذي يفرط ويقصر في

٦١٥٣ رجب سنه ١٢٩٢

الانفاق خوفا من ان تضطره الفاقة الى المسئلة والتذلل للاعداء وكأن سبب البخل هو الجبن عند البحث * وأما الشحيح فهو الذي يجمع الى ما ذكرناه أن يكره حسن حال غيره طمعاً في ان يضطره الى الحاجة اليه فينال به الجاه والرفعة ومنشأ هذا ضرب من الجهل * وأما اللئيم فهو الذي يجمع الى هذه الصفات احتمال العار في الشيء الحقير وسببه نوع من الخبث — وذلك مثال المتلصص والديوث * وأما الرياء فهو التشبه بذوي الاعمال الفاضلة طلباً للسمعة والمفاخرة * وأما الهتكة فالاعراض عن تزيين النفس بالاعمال الفاضلة والمجاهرة باضدادها * وأما الكزازة[١] فالافراط في الجد * واما المجانة فالافراط في الهزل * وأما العبث فالافراط في الاعجاب بلقاء الجليس والانيس * وأما التحاشي فافراط في التبرم بالجليس * وأما الشكاسة فمخالفة المعاشرين في شرائط الانس * وأما الملق فالتحبب الى المعاشرين مع التغافل عما يلحقه من عار الاستخفاف وأما الحسد فالاغتمام بالخير الواصل الى المستحق الذي يعرفه الحاسد * وأما الشماتة فالفرح بالشر الواصل الى غير المستحق ممن يعرفه الشامت * وأما العدالة فجامعة لجميع الفضائل والجور المقابل لها فجامع لجميع الرذائل * وما من خلق من هذه الاخلاق الا وقد ورد في فضائله أخبار باعثة عليه وفي رذائله

(١) قال في المختار الكزازة الانقباض واليبس انتهى والمراد هنا ما ذكره المصنف انتهى مصححه

زواجر عنه ولم نر تطويل الكتاب بها * فليطلب ذلك من آداب النبي عليه السلام وغيره من الكتب * وانما الغرض بيان أن الانسان بسبب هذه القوى الثلاث بصدد هذه الاخلاق كلها ولكل واحد طرفان وواسطة وهو مأمور بالتوسط والاستقامة بين طرفي الافراط والتفريط في جملة ذلك حتى اذا حصل ذلك كله كمل كمالا يقربه الى الله تقريباً بالرتبة لا بالمكان بحسب قرب الملائكة المقربين من الله عز وجل * فلله البهاء الاعظم والكمال الاتم * وكل موجود فمشتاق الى الكمال الممكن له وهو غايته المطلوبة منه فان ناله التحق بأفق العالم الذي فوقه وان حرم عنه انحط الى الحضيض الذي تحته * فالانسان بين أن ينال الكمال فيلتحق فى القرب من الله بأفق الملائكة وذلك سعادته أو يقبل على ما هو مشترك بينه وبين البهائم من رذائل الشهوة والغضب فينحط الى درجة البهائم ويهلك هلاكا مؤبداً وهو شقاوته * ومثاله الفرس الجواد الذي كماله في شدة عدوه فان عجز عن ذلك حط الى رتبة مادونه فاتخذ حمولة وأكولة * ومراتب الكمال للانسان بحسب هذه الاخلاق وبحسب العلوم غير منحصرة — ولذلك تتفاوت درجات الخلق في الآخرة كما تتفاوت في الدنيا في الخلق والاخلاق والثروة واليسار وسائر الاحوال *

﴿ بيان البواعث على تحري الخيرات والصوارف عنها ﴾

أما الخيرات الدنيوية فالبواعث عليها ثلاثة أنواع الترغيب والترهيب بما يجري ويخشى في الحال والمآل * والثاني رجاء المحمدة وخوف المذمة ممن يعتد بحمده وذمه * والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس لانه كمال وفضيلة لا لغاية أخرى وراءها فالاول مقتضى الشهوة وهي رتبة العوام * والثاني من مقتضى الحياء ومبادي العقل القاصر وهو من أفعال السلاطين وأكابر الدنيا ودهاتهم المعدودين من جملة العقلاء بالاضافة الى العوام والثالث مقتضى كمال العقل وهو فعل الاولياء والحكماء ومحققي العقلاء وتتفاوت هذه الرتب قيل (خير ما اعطي الانسان عقل يردعه فان لم يكن فحياء يمنعه فان لم يكن فخوف يزعجه فان لم يكن فمال يستره فان لم يكن فصاعقة تحرقه فيستريح منه العباد والبلاد) وهذا التفاوت يمهد لكل شخص من صباه الى كبره اذ هو في ابتداء صباه لا يمكن زجره وحثه بالحمد والذم بل بمطعوم حاضر أو ضرب ناجز يحس به * فاذا صار مميزا مقاربا للبلوغ أمكن زجره وحثه بالمحمدة والمذمة * فطريق زجره مذمة المزجور عنه وتقبيح حال متعاطيه وطريق ترغيبه في تعلم الادب وغيره تكثرة الثناء على آتيه وكثرة الذم لمجتنبيه فيؤثر ذلك تأثيراً ظاهراً * وأكثر الخلق لا يجاوزون هاتين المرتبتين الى الرتبة الثالثة فيكون اقدامهم واحجامهم صادرة عن

هذه البواعث والصوارف * وأما الرتبة الثالثة فيعز وجودها والخيرات الاخروية ايضا هذا شأنها — وبهذا الطريق تتفاوت الناس فيها اذ لا فرق بين الاخروية والدنيوية الا بتأخر وتقدم والا فالخير مطلوب كل عاقل عاجلا وآجلا * والبواعث على الطلب لا تعدو هذه الاقسام فكان من اطاع الله وترك معصيته فرتبته ثلاث (الاولى) من يرغب في ثوابه الموصوف له في الجنة أو يخاف من عقابه الموعود له في النار * وهذه الرتبة للعامة وهم الاكثرون (والثانية) رجاء حمد الله ومخافة ذمه اعني حمدا وذما في الحال من جهة الشرع وهذه منزلة الصالحين وهي أقل من الاولى بكثير (والثالثة) وهي العزيز الفذ رتبة من لا يبتغي الا التقرب الى الله تعالى وطلب مرضاته وابتغاء وجهه والالتحاق بزمرة المقربين اليه زلفى من ملائكته وهو درجة الصديقين والنبيين ولذلك قال تعالى *(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه) * وقيل لرابعة العدوية ألا تسألين الله الجنة فقالت الجار ثم الدار * وقال بعضهم من عبد الله لعوض فهو لئيم * ولما كان العقل الضعيف لا يقف على كنه هذا المعنى * واكثر العقول ضعيفة خلق الله الجنة والنار ووعد الخلق بهما زجرا وحثا وأطنب في وصفهما ولم يتعرض لهذه المعاني الا بالمرامز مثل قوله تعالى (يريدون وجهه) (واعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وأما الصوارف فقصور أو تقصير * أما

القصور فالمرض المانع والشغل الضروري في طلب قوت النفس والعيال وما يجرى مجراه — وهذا معذور غير مذموم الا أنه عن ذروة الكمال محروم ولا دواء له الا الفزع الى الله تعالى لاماطة هذه الصوارف بجوده * وأما التقصير فقسمان جهل وشهوة غالبة * أما الجهل فهو أن لا يعرف الخيرات الاخروية وشرفها وحقارة متاع الدنيا بالاضافة اليها وهو على رتبتين (احداهما) أن يكون عن غفلة وعدم مصادفة مرشد منبه — وهذا علاجه سهل ولاجله وجب أن يكون في كل قطر جماعة من العلماء والوعاظ ينبهون الخلق عن غفلتهم ويرغبون عن الدنيا في الآخرة لاعلى الوجه الذي الفه اكثر وعاظ الزمن * فهذا مما يجرّيء الخلق على المعاصي أو يحقر الدين عندهم (والثانية) أن يكون لاعتقادهم أن السعادة هي اللذات الدنيوية والرياسة الحاضرة وان أمر الآخرة لا أصل له أو لان الايمان وحده كاف وهو مبذول لكل مؤمن كيف كان عمله أو يظن الاتكال على عفو الله ينجيه وان الله كريم رحيم لا انتقصان له من معصية العصاة فلا بد أن يرحمهم * وهذه انواع من الحماقات فترت خلائق كثيرة عن الطاعات وجرأتهم على المعاصي * فاما من ظن أن الآخرة لا أصل لها فهو الكفر المحض والضلال الصرف * ومهما كان هذا الاعتقاد مصمما بعدت الانسانية عن صاحبه والتحق بالهالكي على كل حال * وأما من ظن أن مجرد الايمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الايمان وغفلة عن قوله (من قال لا إله الا الله مخاصاً

دخل الجنة) وان معنى الاخلاص أن يكون معتقده وفعله موافقاً لقوله حتى لا يكون منافقاً * وأقل درجاته الا يتخذ الهه هواه فمن اتبع هواه فهو عبده وصار إلهه هواه — وذلك يبطل قوله لااله الا الله وينافي اخلاصه * ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قوله لااله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن أن الطبخ يحلو بقوله طرحت السكر فيه دون أن يطرحه أو الولد يخلق بقوله وطأت الجارية دون أن يطأها * والزرع ينبت بقوله بذرت البذر دون أن يبذره — وكما أن هذه المقاصد في الدنيا لاتنال الا باسبابها — فكذلك أمر الآخرة فان أمر الآخرة والدنيا واحد * وانما خص باسم الآخرة لتأخره * والخروج لقضاء العالم آخرة بالاضافة الى السكون في بطن الام * والبلوغ الى عالم التمييز آخرة بالاضافة الى ماقبله * والبلوغ الى رتبة العقلاء آخرة بالاضافة الى ماقبلها * وانما هذه تردد في أطوار الخلقة * والموت طور آخر من الاطوار ونوع آخر من الترقي وضرب آخر من الولادة والانتقال من عالم الى عالم كما قال عليه السلام (القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة) أي ليس في الموت الا تبديل منزل وكما أن من جلس متكلا على رحمة الله ونعمته متعطشا جائعا لم يسلك الطريق في شرب الماء وتناول الخبز هلك * ومن اتكل عليه في طلب المال ولم يتجر لم يحصل له المال وكان شقيا — فكذا من اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا * ولذلك نبه الله تعالى عليه فقال

(وان ليس للانسان الا ما سعى) ومهما عرف ان البهاء الا كمال لله وان السعادة القصوى في التقرب عنه وان القرب منه ليس بالمكان وانما هو باكتساب الكمال على حسب الامكان وان كمال النفس بالعلم والعمل والاطلاع على حقائق الامور مع حسن الاخلاق * فمن لم يكمل كيف يقرب من الله تعالى * ومن أراد ان تقرب رتبته عند الملك بنوع من العلم لو تعطل في بيته متكلا على كرم الملك ملازما صفة النقصان غير مجتهد طول الليل في طلب العلم ومعولا على فضل الله في ان يبيت ليله ويصبح افضل أهل زمانه فان فضل الله عز وجل اوسع له وقدرته متسعة لاضعافه قيل له (١) هذا فعل مشحون بالباطل والحماقة مزين الظاهر بكلام يظن انه محمود فكذا من ظن ان الآخرة تنال بالبطالة والعطالة فهذه حاله *

﴿ بيان انواع الخيرات والسعادات ﴾

نعم الله سبحانه وان كانت لا تحصى مفصلة فجملتها منحصرة في خمسة أنواع (الاول) السعادة الاخروية التي هي بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر معه يخالطه وان يتوصل اليه الا بالله ولا يكمل الا (بالنوع الثاني) وهو الفضائل النفسية التي حصرنا جملتها من قبل في أربعة أمور العقل وكماله العلم * والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة

(١) قوله قيل له الخ خبر قوله ومن أراد ان تقرب

والعدالة وكمالها الانصاف وهي على التحقيق أصول الدين * وانما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث وهي الفضائل البدنية المنحصرة في أربعة أمور في الصحة والقوة والجمال وطول العمر ويتممها النوع الرابع وهي الفضائل المطيفة بالانسان المنحصرة في أربعة أمور وهي المال والأهل والعز وكرم العشيرة * ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك الا بالنوع الخامس وهي الفضائل التوفيقية وهي أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده * فهذه السعادات بعد السعادة الاخروية ستة عشر ضربا * ولا مدخل للاجتهاد في اكتساب شيء منها الا الفضائل النفسية على الوجه الذي سبق * فقد عرفت ان هذه الخيرات خمسة وهي الاخروية والنفسية والبدنية والخارجة والتوفيقية * والبعض منها يحتاج الى البعض اما حاجة ضرورية كالفضائل النفسية التي لا مطمع في الوصول الى نعيم الآخرة الا بها وصحة البدن الذي لا وصول الى تحصيل الفضائل النفسية الا به * وأما حاجة نافعة كحاجة هذه الفضائل الخارجة فان المال والاهل والعشيرة ان عدمت تطرق الخلل الى أسباب هذه الفضائل * فان قلت فما وجه الحاجة الى الفضائل الخارجة من المال والاهل والعز وكرم العشيرة *

(فاعلم) ان هذه الامور جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود * اما المال فالفقير في طلب الكمال كساع الى الهيجاء بغير سلاح وكباز متصيد بلا جناح — ولذلك قال عليه

السلام (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وقال نعم العون على تقوى الله المال كيف ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذي هو أشرف الفضائل * ثم يحرم عن فضيلة الحج والصدقة والزكاة وافاضة الخيرات * وأما الاهل والولد الصالح فالحاجة اليهما ظاهرة * أما المرأة الصالحة فحرث الرجل وحصين دينه قال عليه السلام (نعم العون على الدين المرأة الصالحة) وقال في الولد (اذا مات الرجل انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والاعين والايدي فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية ما يطول فيه شغله لو انفرد * وكلما تخففت الاشغال الضرورية في الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم فهو معين على الدين * وأما العز فبه يدفع الانسان عن نفسه الضيم ولا يستغني عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يقصده فيشوش عليه وقته ويشغل قلبه — ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان * وقيل الدين اس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم * وما لا حارس له فضايع — ولذلك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وبالجملة دفع الاذى لا بد منه للفراغ للعبادة * ولا يتم ذلك الا بنوع من العز — وكما ان الموصل الى الخير خير فدفع الصارف عن الخير خير أيضاً * وأما كرم

العشيرة وشرف الآباء فقد يستهان به ويقال المرء بنفسه والناس ابناء ما يحسنون وقيمة كل امرىء ما يحسنه * ولعمري اذا قوبل شرف الاصل دون شرف النفس بشرف النفس دون شرف الاصل استحقر شرف الاصل اما اذا انضم اليه لم تنكر فضيلته (فأين السرى اذا سرى اسراهما [1]) وقد شرط النسب في الامامة * وقيل الأئمة من قريش وكيف لا والاخلاق تتبع الامزجة وتسري من الاصول الى الفروع ولذلك قال عليه السلام (تخيروا لنطفكم وقال اياكم وخضراء الدمن) وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء * فهذا أيضاً من السعادات ولا نعني به الانتساب الى بني الدنيا ورؤسها وأمرائها ولكن الانتساب الى النفوس الزكية الطاهرة المزينة بالعلم والعبادة والعقل * فان قلت فما غناء هذه الفضائل الجسمية * فنقول أما الحاجة الى الصحة والقوة وطول العمر فلا شك فيه وانما يستحقر أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحري الفضائل * ولعمري ان الجمال لقليل الغناء ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة أما في الدنيا فلا يخفي وجهه وأما في الآخرة فمن وجهين (أحدهما) ان القبيح مذموم والطباع منه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة أقرب فكأنه جناح مبلغ مثال المال * والمعين على قضاء حاجات

---

(١) اي اشدهما سيرا وكانه مثل يريد به أين سرى رجل أي سيره ليلا من سرى آخر أشد منه وأكثر في السير

الدنيا معين على الآخرة اذ الوصول الى الآخرة بهذه الاسباب الدنيوية (والثاني) ان الجمال في الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن * والمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان * ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن واستدلوا بها على الاخلاق الباطنة * والعين والوجه كالمرآة للباطن — ولذلك يظهر فيهما أثر الغضب والشر * وقيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وما في الارض قبيح الا ووجهه أقبح منه * واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه وقال (الروح ان اشرقت على الظاهر ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن)وقدقال عليه السلام (اطلبوا الحاجة عند حسان الوجوه) وقال (اذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم) وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة * وقال تعالى ممتناً به (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك انوثة وانما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليها * فان قلت فما معنى الفضائل التوفيقية التي هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد (فاعلم) أن التوفيق هو الذي لا يستغنى عنه الانسان في كل حال ومعناه موافقة ارادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره * وهو صالح للاستعمال في الخير والشر ولكن

صار متعارفا في الخير والسعادة * ووجه الحاجة الى التوفيق بين —
ولذلك قيل *

(اذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجني عليه اجتهاده)

وأما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب الفضائل الا بها فهي مبدأ الخيرات كما قال تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقال تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء) وقال عليه السلام (ما من أحد يدخل الجنة الا برحمة الله) أي بهدايته * قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا * والهداية ثلاث منازل (الاولى) تعريف طريق الخير والشر المشار اليه بقوله عزوجل (وهديناه النجدين) وقد انعم الله به على كافة عباده بعضهم بالعقل وبعضهم على ألسنة الرسل * ولذلك قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) (والثانية) ما يمد به العبد حالا بعد حال بحسب ترقيه في العلوم وزيادته في صالح الاعمال واياه عنى بقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (والثالثة) هو النور الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة فيتهدي به الى مالا يهتدي اليه ببضاعة العقل الذي به يحصل التكاليف وامكان التعلم * واياه عنى بقوله تعالى (قل ان هدى الله هو الهدى) فأضافه الى نفسه وسماه الهدى المطلق * وهو المسمى حياة في قوله (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) وبقوله تعالى (أفمن

شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وأما الرشد فنعني به العناية الالهية التي تعين الانسان على توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده * ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) وأما التسديد فهو ان يقوم ارادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليهجم عليه في أسرع وقت * فالرشد تنبيه بالتعريف * والتسديد اعانة ونصرة بالتحريك * وأما التأييد فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى اذ أيدتك بروح القدس * ويقرب منه العصمة وهو فيض الهي يقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس * واياه عنى بقوله (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه) وان تستتب هذه الامور الا بما يمد الله به عبده من الفهم الثاقب الصافي والسمع المصغى الواعي والقلب البصير المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على مقتضى المهمات لقلة القاصر لا ما يشغل عن الدين لكثرته والعشيرة والعز الذي يصون عن سفه السفهاء ويرفع ظلم الاعداء * فبهذه الاسباب تكمل السعادات *

﴿ بيان غاية السعادات ومراتبها ﴾

اعلم ان السعادة الحقيقية هي الاخروية وما عداها سميت سعادة إما مجازاً أو غلطاً كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة *

واما صدقا ولكن الاسم على الاخروية أصدق * وذلك كل مايوصل الى السعادة الاخروية ويعين عليه * فان الموصل الى الخير والسعادة قد يسمى خيراً وسعادة * والاسباب النافعة المعينة تشرحها تقسيمات أربعة (الاول منها) ماهو نافع في كل حال وهي الفضائل النفسية * ومنها ماينفع في حال دون حال ونفعها أكثر كالمال القليل ومنها ماضرره أكثر في حق أكثر الخلق — وذلك بعض أنواع العلوم والصناعات * ولما كثر الالتباس في هذا وجب على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق هذه الامور حتى لايؤثر الضار على النافع بل النافع على الرفيع والرفيع على النفيس الأهم فيطول عليه الطريق * فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن شحمه ورم وكم من طالب حبلا ليتمنطق به فيأخذ حية فيظنها حبلا فتلدغه * والعلم الحقيقي هو الذي يكشف عن هذه الامور (التقسيم الثاني) ان الخيرات بوجه آخر تنقسم الى مؤثرة لذاتها والى مؤثرة لغيرها والى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها * فينبغي أن يعرف مراتبها ليعطي كل رتبة حقها * فالمؤثرة لذاتها السعادة الاخروية فليس وراء تلك الغاية غاية أخرى * والمؤثرة لغيرها من المال كالدراهم والدنانير * فلولا ان الحاجات تنقضي بها لكانت كالحصباء وسائر الجواهر الخسيسة * والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم * فان الانسان وان استغنى عن المشي الذي يراد سلامة الرجل له فيريد أيضاً سلامة الرجل من حيث هي سلامة (والتقسيم الثالث) ان الخيرات تنقسم من وجه

آخر الى نافع وجميل ولذيذ * والشرور ثلاثة ضار وقبيح ومؤلم * فكل واحد ضربان (أحدهما) مطلق وهو الذي يجمع الاوصاف الثلاثة في الخير كالحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة * وفي الشر كالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم (والثاني) مقيد وهو الذي جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض * فرب نافع مؤلم كقطع الاصبع الزائدة والسلعة الخارجة * ورب نافع قبيح كالحمق فانه راحة حيث قيل استراح من لاعقل له أي لايفهم للعواقب فيستريح في الحال * ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال ونافع في نجاة النفس * والنافع قسمان قسم ضروري كالفضائل النفسية والاتصال الى سعادة الآخرة وقسم قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا كالسكنجبين في تسكين الصفرا (التقسيم الرابع) ان اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتهيات الثلاثة ثلاث اذ اللذة هي عبارة عن ادراك المشتهى * والشهوة عبارة عن انبعاث النفس لنيل ماتتشوقه لذة عقلية (١) وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات * أما العقليات كلذة العلم والحكمة وهي أقلها وجوداً واشرفها * أما قلتها فلان الحكمة لايستلذها الا الحكيم * وقصور الرضيع عن ادراك لذة العسل والطيور السمان والحلاوات الطيبة لايدل على انها ليست لذيذة * واستطابته للبن لاتدل على انه أطيب الاشياء * والناس

(١) قوله لذة عقلية بدل من قوله ثلاث

كلهم الا النادر ممنوون في صبا الجهل بالعنة في رتبة العلم * فلذلك يستلذون الجهل *

﴿ ومن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرّا به الماء الزلالا ﴾

وأما اشرفيتها فلانها لازمة لاتزول ودائمة لاتحول وباقية لذاتها * وثمرها في الدار الآخرة الى غير نهاية * والقادر على الشريف الباقي اذا رضي بالخسيس الفاني كان مصابا في عقله محروما بشقاوته وادباره * وأقل أمر فيه ان الفضائل النفسية لاسيما العلم والعقل لاتحتاج الى أعوان وحفظة بخلاف المال * فان العلم يحرسك وأنت تحرس المال * والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به * والعلم نافع في كل حال ومطلقا وابدا * والمال تارة يجذب الى الرذيلة وتارة الى الفضيلة * ولذلك ذمّ في القرآن في مواضع وان سمي خيرا في مواضع (الثانية) هي اللذة المشتركة بين الانسان وبين سائر الحيوانات كلذة المأكل والمشرب والمنكح وهي أكثرها وجوداً (الثالثة) التي يشارك فيها الانسان بعض الحيوانات وهي لذة الرياسة والغلبة * وهي أشد التصاقا بالعقلاء * ولذلك قيل آخر مايخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة * وكيف تكون لذة الجماع والأكل لذة مطلقة وهي من وجه ازالة الم * ولذلك قال الحسن (الانسان صريع جوع وقتيل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومسكن ومشموم ومسموع ومبصر * وهي بجملتها خسيسة

كما روي عن علي كرم الله وجهه اذ قال لعمار بن ياسر وقد رآه يتنفس كالحزين * ياعمار ان كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتك وان كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فاني وجدت لذاتها المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمسكونات والمشمومات والمسموعات والمبصرات * فاما المأكولات فأفضلها العسل وهو صنعة ذباب * والمشروبات افضلها الماء وهو أهون موجود وأعز مفقود * وأما المنكوحات فمبال في مبال * وحسبك ان المرأة تزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها * وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دودة * والمشمومات فأفضلها المسك وهو دم فارة والمسموعات فريح هابة في الهواء والمبصرات فخيالات صائرة الى الفناء — هذا كلامه * ومن آفاتها ان كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيفائها في لحظة * فليعتبر حالة الفراغ عن الجماع والأكل بما قبله * ولينظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا عنه في الحال * فأين يوازي هذا ما تدوم لذته ولا تفنى ابد الآباد راحته * وهو الابتهاج بكمال النفس بالفضائل النفسية خصوصا الاستيلاء على الكل بالعلم والعقل *

﴿ بيان ما يحمد ويذم من افعال شهوة البطن والفرج والغضب ﴾

أما شهوة البطن فداعية الى الغذاء * والمطعم ضربان ضروري وغير ضروري * أما الضروري فهو الذي لا يستغنى عنه

في قوام البدن كالطعام الذي يغتذى به والماء الذي يرتوي به * وهو ينقسم الى محمود ومكروه ومذموم ومحظور * أما المحمود فان يقتصر على تناول ما لا يمكنه الاشتغال والتقوي على العلم والعمل الا به * ولو اقتصر عنه لتحللت قواه واختل بدنه * فهذا المقدار اذا تناوله من حيث يجب كما يجب فهو معذور بل مشكور ومأجور * اذ البدن مركب النفس لتقطع به منازلها الى الله تعالى * وكما ان الجهاد عبادة فامداد فرس المجاهدة بما يقويه على السير بالمجاهد أيضا عبادة * ولذلك قال عليه السلام (عند اكل الصالحين تنزل الرحمة) وذلك اذا تناوله تناول من اضطر الى شيء يود لو استغنى عنه * وادخال الطعام البطن واخراجه قريب * ولذلك قيل من كان همته ما يدخل في بطنه كانت قيمته ما يخرج منه * وليعلم الآكل أنه في تناول فضلات الاشجار والنبات كالخنزير في تناول عذرة الانسان وفضلاته * وكالجعل في تناول فضلة الحيوان ولو كان للاشجار السنة لناطقت متناول فضلاتها بالتشبيه بهذا المتناول لفضلة الحيوان * وأما المكروه فهو الاسراف والامعان من الحلال والزيادة على قدر البلغة * قال عليه السلام (ما من وعاء أبغض الى الله تعالى من بطن مليء من حلال) وهو ايضا مضر من جهة الطب فانه أصل كل داء * قال عليه السلام (البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعوّدوا كل جسد ما اعتاد) فقال محققو الاطباء لم يدع عليه السلام شيئاً من الطب الا وأدرجه تحت هذه

الـكايات الثلاث * ولا ينبغي ان يستهين طالب السعادة بهـذه الزيادة وان سميناها مكروها لا محظوراً فانه مكروه سريع السياقة الى المحظورات بل الى اكثر المحظورات * فان مثار الشرور قوة الشهوات ومقوي الشهوات هي الاغذية * فامتلاء البطن مقوي للشهوة وتقوية الشهوة داعية للهوى * والهوى اعظم جند الشيطان الذي اذا تسلط سباه عن ربه وصرفه عن بابه * وامـــداد جنود الاعداء بالمقويات يكاد ينزل منزلة عين العداوة * فلهذا يكاد تكون الـكراهية فيه حظراً * ولذلك قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد * فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فأخاف ان يجمح بي فيورّطني * ولان احمله على الشدائد احب اليّ من ان يحملني على الفواحش * فان قلت فما المقـدار المحمود (فاعلم) انه نبه عليه السلام على التقدير بخبرين (احدهما) قوله (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبـه فان كان لا بد فثلث للطعـام وثلث للشراب وثلث للنفس) فاما اللقيمات فهي دون العشرة ويقرب منه قوله عليه السلام (المؤمن يأكل في معى واحد والمنافق يأكل في سبعة امعاء) والاحب الاكل في سبع البطن * فان غلب النهم ففي الثلث * واظن ان الحد ثلث في حق الاكثر وان كان ذلك قد يختلف باختلاف الاشخاص * وعلى الجملة فلا بد ان يكون دون الشبع حتى يخف البدن للعبادة والتهجد بالليل وتضعف القوى عن الانبعاث الى الشهوات * واما المحظور فهو

التناول مما حرم الله عز وجل من مال الغير او المحرمات * وأفحشها شرب المسكر فانه اعظم آلات الشيطان في ازالة العقل الذي هو من حزب الله واوليائه واثارة الشهوة والقوى السبعية التي هي احزاب الشيطان واوليائه * فهذا حكم المطاعم على الاجمال * ولا يطمعن احد في سلوك طريق السعادة قبل ان يراعى امر المطعم في مقداره ووجه حله فان المعدة منبع القوى * فكأنه الباب والمفتاح الى الخير والشر جميعا * ولذا عظم في الشرع امر الصوم لانه على الخصوص يتوجه الى قهر اعداء الله تعالى كما روي (ان الصوم لي وانا الذي اجزي به) الى غير ذلك مما ورد فيه * واما شهوة الفرج فأفعالها تنقسم الى محمود ومكروه ومحظور * أما المحمود فهو المقدار الذي لا بد منه لحفظ النوع فان النكاح ضروري لبقاء نوع الانسان باتصال نسله كما أن الغذاء ضروري لبقاء شخصه الى حين أجله * والشهوة خلقت باعثة على ابقاء النسل بطريق الوطء كما خلق الجوع باعثًا على ابقاء الشخص بالاكل * ولذلك قال (تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مباه بكم الامم) فمن كان قصده في النكاح أمرين (أحدهما) النسل لكثرة المباهاة وأن يلحقه بعده ولد صالح يدعو له (والثاني) أن يدفع عن نفسه فضلة المني التي اذا اجتمعت كانت كالمرة * والدم اذا اجتمع عظمت نكايته في البدن باثارة المرض وفي الدين بالدعوة الى الفجور * فالنكاح على هذا الوجه محمود وسنة وداخل تحت قوله (من أحب فطري فليستن بسنتي) ومن

نكح فقد حصن نصف دينه ولا بأس بغرض ثالث وهو أن يكون في بيته من يدبر أمر منزله ليتفرغ هو للعلم والعبادة فيصير النكاح على هذا الوجه من جملة العبادات فان الأعمال بالنيات * وامارة هذا ان لا يطلب من المرأة الا الجمال للتحصن وحسن الخلق لتدبير المنزل * والديانة للصيانة والنسب الديني فقط فانه امارة الديانة وحسن الخلق فان العرق نزاع ولذلك قال عليه السلام (عليك بذات الدين تربت يداك واياكم وخضراء الدمن) وقال (تخيروا لنطفكم) وليطلب صحة البدن وان لا يكون عقيما لاجل الولد فانه المقصود * ولذلك كره العـــزل واتيان المرأة من ورائها فانه اهمال للحراثة ونساؤكم حرث لكم * ولا بأس بطلب الابكار لتستحكم الألفة وقد ندب الشرع اليها * وأما المكروه فان يقصد التمتع وقضاء الشهوة فقط * ثم يمعن فيه ويواظب عليه وربما يتناول مايزيد في شهوته وذلك مضر شرعاً ولا كراهية فيه في نفسه فانه مباح ولكنه انصراف عن الله الى اتباع الهوى وتشبه بالثيران والحمر * واثارة الشهوة بالمطعومات القوية والاسباب الباعثة تضاهي اثارة سباع ضارية وبهائم عادية ثم الانهاض بعـــدها للخلاص منها * وأما المحظور فعلى وجهين (أحدهما) ان يقضي الشهوة في محل الحرث ولكن بغير عقـــد شرعي ولا على الوجه المأمور وهو الزنا * وقد قرن ذلك بالشرك حيث قال الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة (والثاني) تعاطيه في غير محل الحرث وهو أفحش من الزنا لان الزاني

لم يضيع الماء بل وضعه في محل الحرث على غير الوجه المأمور *
وهذا قد ضيع وكان ممن (قال الله تعالى ويهلك الحرث والنسل)
ولذلك سميت اللواطة الاسراف فقال تعالى (انكم لتأتون الرجال
شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) فهذه مراتب الناس
في شهوة الفرج * وقد ينتهي بعض الضلال الى العشق وهو عين
الحماقة وغاية الجهل بما وضع الجماع له ومجاوزة لحد البهائم في تملك
النفس وضبطها لها لان المتعشق لم يقنع بارادة شهوة الجماع وهي أقبح
الشهوات وأجدرها بان يستحي منها حتى اعتقد ان لا تنقضي الا
في محل واحد * والبهيمة تقضي الشهوة انى اتفق فتكتفي به *
وهذا لا يكتفي الا من معشوقته حتى ازداد به ذلا الى ذل وعبودية
الى عبودية * واستسخر العقل لخدمة الشهوة * وقد خلق ليكون
آمراً مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة محتالا لاجلها وهو مرض نفس
فارغة لا همة لها * وانما يجب الاحتراز من أوائلها وهو معاودة النظر
والفكر والا فبعد الاستحكام يعسر دفعها وكذلك عشق الجاه والمال
والعقار والاولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان
هذه الامور تستولي على طائفة ينقضي عليهم الدين والدنيا ولا
يصبرون عنها * ومثال رد الشهوة في أول انبعاثها صرف عنان
الدابة عن توجهها الى باب دار تدخله فما أهون منعها وصرف عنانها *
ومثال علاجها بعد استحكامها أن تترك الدابة حتى تدخل وتجاوز
الباب * ثم تأخذ بذنبها جاراً لها الى وراء وما أعظم التفاوت بين

الامرين فليكن الاحتياط في بدايات الامور * فاما اواخرها فلا تقبل الاصلاح في الاكثر الا بجهد شديد يوازي نزع الروح * وأما أفعال الغضب فتنقسم الى محمود ومكروه ومحظور اما المحمود ففي موضعين (احدهما) المسمى غيرة وهو أن يقصد حريم الرجل ويتعرض لمحارمه * فالغضب له ولدفعه محمود وقلة التأثر به خنوثة وركاكة — ولذلك قال عليه السلام (ان سعداً لغيور وان الله أغير منه) وقد وضع الله الغيرة في الرجال لحفظ الانساب فان النفوس لو تسامحت بالتزاحم على النساء لاختلطت الانساب * ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها (والثاني) الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش غيرة على الدين وطلباً للانتقام ولذلك مدحوا بكونهم اشداء على الكفار رحماء بينهم — ولذلك قال عليه السلام (خير أمتي احداؤها) فالمراد به الحدة حمية الدين ولذلك قال تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ومع هذا فالسلطان اذا غضب عند جناية جان فينبغي أن يحبسه ولا يبادر الى عقوبته حتى يجدد النظر فيه فان الغضب غول العقل فربما يحمله على مجاوزة حد الواجب في الانتقام وأما المكروه فغضبه عند فوات حظوظه المباحة نيلها كغضبه على خادمه وعبده عند كسر آنيته أو توانيه في خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز عنه * فهذا لا ينتهي الى حد المذموم ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب * ولذلك قيل لواحد حكيم لا تصفح عن عبدك وهو يقصر في خدمتك

فيفسد باحتمالك فقال لان يفسد عبدي في صلاح نفسي خير من أن تفسد نفسي في صلاح عبدي فان احتمال ذلك اصلاح للنفس والانتقام اصلاح للعبد * وأما المذموم فهو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير ان يكون في الانتقام مصلحة في المستقبل دينا ودنيا وهو الغالب على اكثر الخلق وهو انقيـــاد للخلق الذي يضاد الحلم والتحلم فان الحلم عبارة عن امساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم عن امساكها عن قضاء الوطر منه اذا هاج والكمال في الحلم ولكن التحلم صبر على المكروه وفيه ايضاً خير كثير فهذه مراتب افعال الغضب * والناس في الغضب يختلفون فبعضهم كالحلفاء سريع التوقد سريع الخمود وبعضهم كالقطا بطيء التوقد بطيء الخمود وبعضهم بطيء التوقد سريع الخمود وهو الاحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة * وأسباب الغضب أما من جهة المزاج فالحرارة واليبوسة * يدل عليها تعريف الغضب فان الغضب معناه غليان دم القلب فان كان على من فوقك في القدرة على الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى القلب وكان حزناً ولاجله يصفر الوجه * وان كان على من دونك تولد منـــه ثوران دم القلب لا انقباضه فيكون منه الغضب الحقيقي وطلب الانتقام * وان كان على نظيرك في القدرة على الانتقام تولد منـــه تردد الدم بين انقباض وانبساط ويختلف به لون الوجه فيحمر

ويصفر ويضطرب * وبالجملة قوة الغضب محلها القلب * ومعناه حركة الدم وغليانه * وأما ماوراء المزاج فالاعتياد فان من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه * وان من خالط أهل الهدو والوقار أثرت العادة ايضافيه * وأما سببه المخرج له من القوة الى الفعل في الحال فهو العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والضيم وطلب مافيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام وكل ذلك مذموم * وحق من اعتراه الغضب أن يتفكر فيما قاله بعض الحكماء لبعض السلاطين وقد سأله حيلة في دفع الغضب * فقال ينبغي أن تذكر أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط وان تخدم لا أن تخدم فقط * وان تحتمل لا أن تحتمل فقط وان تعلم أن الله يراك دائما * فاذا فعلت ذلك لم تغضب (واعلم) أن الغضب له فروع كما سبق ومن جملتها الشجاعة والتهور والمنافسة والغبطة والحسد على ما سبق ولكن نزيدها شرحا * أما الشجاعة فخلق بين التهور والجبن فان اعتبر اضافتها الى النفس فهى صرامة القلب فى الاهوال وربط الجأش عند المخاوف وان اعتبر بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة وتولدها من الغضب وحسن الامل وبها يصابر الانسان الشدائد بل بها يصبر عن المعاصى فان الغضب اذا سلط على الشهوة زجرها * ولما كان الدين شطره رغبة في الخير وشطره تركا للشر قال عليه السلام (الصبر نصف الايمان) ولما كان بعض الشرور في شهوة الفرج والبطن وبعضها في غيرهما

قال الصوم نصف الصبر والصبر صبران صبر جسمي وهو تحمل المشاق بالبدن اما فعلا كتعاطي الاعمال الشاقة واما انفعالا كاحتمال الضرب الشديد والمرض العظيم * والمحمود التام هو الضرب الثاني وهو الصبر النفسي * فان كان عن تناول المشتهيات سمي عفة * وان كان على احتمال مكروه اختلفت اسماؤه بحسب اختلاف المكروه * فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع وان كان فى احتمال غنى سمى ضبط النفس ويضاده البطر * وان كان في حرب سمى شجاعة ويضاده الجبن * وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر وان كان في نائبة مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرّم وضيق الصدر * وان كان فى اخفاء كلام سمى كتم السر * وان كان على فضول العيش سمى زهداً وقناعة ويضاده الحرص والشره * ولذلك قال تعالى (والصابرون في البأساء) أى المصيبة (والضراء) أى الفقر (وحين البأس) أى المحاربة (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) واما الغبطة والمنافسة والحسد التى هى من جملة الفروع أيضا فالغبطة محمودة والحسد مذموم * قال عليه السلام (المؤمن يغبط والمنافق يحسد) والمنافسة محمودة قال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) والغبطة تمني الانسان ان ينال كل ما ناله أمثاله من غير ان يغتم لنيل غيره فاذا انضم اليه الجد والتشمير فى الوصول الى مثله اوخير منه فهو منافسة والحسد هو

تمني زوال النعمة عن مستحقيها * وربما كان مع سعي في ازالتها * والخبيث الحسد من يكون ساعيا في الازالة من غير ان يطلبها لنفسه * والحسد غاية البخل اذ البخيل يبخل بمال نفسه * والحسود يبخل بمال الله على غيره * وقيل الحسد والحرص هما ركنا الذنوب ولهما ضرب (١) المثل بآدم وابليس اذ حسد ابليس آدم فصار لعينا * وحرص آدم على مانهي عنه فاخرج من الجنة * فهما شجران يثمران الهموم والغموم والخسران * فمن قطع عروقهما نجا * وبالجملة فالحسد عين الحماقة لان من لا يغتم بخير يصل الى أهل المغرب مع أنه لا يناله بوجه فلم يغتم بخير يصل الى عشيرته وشركائه وجيرانه وأهل بلده * وربما ينال منه حظا * وقوله عليه السلام (لا حسد الا في اثنين رجل آتاه الله مالا فجعله في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها) انما أراد به الغبطة فان الحسد قد يطلق لارادتها — فهذا هو القول في ضبط أفعال هذه الصفات * فان قلت فمن ضبط أفعال هذه القوى حتى حدث في نفسه من افعاله اخلاق راسخة يتيسر بها هذه الافعال فهل يكون عفيفا (فاعلم) أن العفة لا تتم بهذا القدر مالم ينضم اليه عفة اليد واللسان والسمع والبصر وحدّها في اللسان الكف عن السخرية والغيبة والنميمة والكذب والهمز والتنابذ بالالقاب * وفي السمع ترك الاصغاء الى قبائح اللسان من الغيبة وغيرها والى استماع الاصوات المحرمة وكذلك في جميع

(١) في هذا التعبير سر غامض تعرفه ارباب العقول الحرة والافكار العالية

الجوارح والقوى * وعماد عفة الجوارح كلها ألاّ يطلقها في شيء مما يختص بها الا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذي يسوغه * ثم لاتتم بذلك مالم يكن قصده في الاقدام والاحجام تحري الفضيلة وطلب التقرب الى الله عز وجل و نيل مرضاته * فأما ان كان قصده بعفته انتظارا لما هو اكثر أو لانه لا يوافق مزاجه أو لخمود شهوته أو لاستشعار خوف في عاقبته كسقوط حشمته أو لا نه ممنوع من تناوله فكل ذلك ليس بعفة وانما كل ذلك تجارة وترك حظ لحظ عاجله * وكل ذلك غير كاف في تحصيل العفة فليعلم ذلك ولنخض بعد ذلك في تعريف التعلم والتعليم وتهذيب القوة العقلية *

﴿ بيان شرف العقل والعلم والتعليم ﴾

قد عرفت فيما سبق أن العلم والعمل هما وسيلتا السعادة وان العمل لايتصور إلا بعلم بكيفية العمل وان العلم الذي ليس بعملي كالعلم بالله وصفاته وملائكته متصود فقد استفدت منه ان العلم أصل الاصول فلا بد أن نرشدك الآن الى طريق التعلم والتعليم ولننبه أولا على شرف هذه الامور وندل عليه فنقول * أما التعليم فهو أشرف الاعمال ﴿ والصناعات ثلاثة اقسام ﴾ اما أصول لاقوام للعالم دونها وهي أربعة الزراعة والحياكة والبناية والسياسة (١)

(١) الزراعة للقوت والحياكة للباس والبناية للسكن والسياسة للامن

واما مهيئة لكل واحدة منها وخادمة لها كالحدادة للزراعة * والحلاجة والغزل للحياكة واما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها كالطحانة والخبز للزراعة * والقصارة والخياطة للحياكة * وذلك بالاضافة الى قوام العالم الارضي مثل أجزاء الشخص بالاضافة اليه فانها ثلاثة أضرب * اما اصول كالقلب والكبد والدماغ * واما مرشحة لتلك الاصول وخادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين واما مكملة ومزينة لها كالهدب والحاجب * واشرف أصول الصناعات السياسات اذ لاقوام للعالم الابها وهي أربعة اضرب (الاول) سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم (والثاني) الخلفاء والولاة والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً لكن على ظاهرهم لاعلى باطنهم (والثالث) العلماء والحكماء وحكمهم على باطن الخواص فقط (والرابع) الوعاظ والفقهاء وحكمهم على باطن العامة فقط فاشرف هذه السياسات الاربع بعد النبوة افادة العلم وتهذيب نفوس الناس * وبرهان ذلك أن شرف الصناعة انما يكون باعتبار النسبة الى القوة المبرزة المظهرة لها كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات فان الاولى متعلقة بالقوة العقلية التي هي أشرف القوى * والاخرى متعلقة بالقوة الحسية وهي السمع واما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة واما بحسب شرف الموضوع المعمول فيه كفضل الصياغة على الدباغة وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرك بالعقل الذي هو

اشرف القوى وبه يتوصل الى جنة المأوى وهو ابلغ نفع واعمه وموضوعه الذى يعمل فيه نفوس البشر وهى افضل موضوع بل اشرف موجود في هذا العالم * فافادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة الله تعالى ومن وجه خلافة الله هو أجل خلافة فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو اخصّ صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه * ثم هو مأذون له فى الانفاق على كل محتاج اليه فأيّ رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه وخلقه فى تقريبهم الى الله زلفى وسياقتهم الى جنة المأوى * واما شرف العلم والعقل فمدرك بضرورة العقل والشرع والحس * أما الشرع فقد قال عليه السلام (أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً اكرم عليّ منك بك آخذ وبك اعطي وبك اثيب وبك أعاقب) وهذا العقل الذي يدرك به الانسان الاشياء يجري من العقل الاول الذي خلق الله عزوجل مجرى النور من الشمس فان هذه العقول عقول بالاضافة الى الاشخاص وذلك(١) مطلق من غير اضافة * وأما دلالة العقل على شرف العقل فهو ان مالا ينال سعادة الدنيا والآخرة الا به فكيف لا يكون اشرف الاشياء وبالعقل صار الانسان خليفة الله وبه تقرب اليه وبه تم دينه(٢) ولذلك قال

(١) فان العقل الاول نور صرف فياض على الكل فهو روح الكل وقد يسمى عند العرفاء بقلب العالم الاكبر انتهى (٢) قال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم أي ببعثة الرسول وشرعته تم دين الله تعالي

عليه السلام (لادين لمن لاعقل له) وقال (لا يعجبكم اسلام امرىء حتى تعرفوا عقله) ولهذا قيل من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه وناهيك به شرفا ان قد شبه الله سبحانه العقل بالنور فقال (الله نور السموات والارض) أي منورهما (١) وأكثر مايطلق النور والظلمات في القرآن على العلم والجهل مثل قوله تعالى (الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وانما كل ذلك بالعقل — ولذلك قال عليه السلام لعلي رضي الله عنه (اذا تقرب الناس لخالقهم بابواب البر فتقرب أنت بعقلك تتنعم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة) وسنذكر وجه التقرب بالعقل وأما الناس بمجرده فكاف في ادراك شرف العقل والعلم حتى ان أكبر الحيوانات شخصاً وأقواها بدنا اذا رأى الانسان احتشمه بعض الاحتشام واستشعر الخوف منه لاحساسه بانه مستول عليه بحيلته * وأقرب الناس الى البهائم اجلاف العرب والترك * ورعاة البهائم منهم ولو وقع فيما بينهم راع أو فرمنهم عقلا وأكثر منهم دراية بصناعتهم لو قروه طبعاً ولذلك ترى الاتراك بالطبع يبالغون في توقير شيوخهم لان التجربة ميزتهم عنهم بمزيد علم ولذلك قال عليه السلام مطلقاً (الشيخ في قومه كالنبيّ في أمته) وانما وقار

(١) اذ به يتنور وينكشف أسرار ملكوت السموات والارض ومعنى كون الله منورا انه خالق لذلك النور الوضاح

النبي في أمته بعلمه وعقله لا بقوة شخصه وجمال بدنه وكثرة ماله وقوة شوكته ولذلك قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله عليه السلام فلما وقع طرفهم عليه هابوه وتراءى لهم نور الله في وجهه معربا عن تميزه ملقيا للرعب في صدور معانديه * وقد سمى الله عز وجل العلم روحاً فقال (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا) وسماه حياة فقال تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه) وقال عليه السلام (ماخلق الله خلقاً أكرم من العقل) ولو جلبت الاخبار الواردة في الحث على طلب العلم لطال المقال وأيّ تشريف يزيد على قوله (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاءبما يصنع)

﴿ بيان وجوب التعلم لاظهار شرف العقل ﴾

اعلم ان شرف العقل من حيث كونه مظنة العلم والحكمة وآلة له * ولكن نفس الانسان معدن للعلم والحكمة ومنبع لها وهي مركوزة فيها بالقوة في أول الفطرة لا بالفعل كالنار في الحجر والماء في الارض والنخل في النواة * ولا بد من سعي في ابرازه بالفعل كما لابد من سعي في حفر الآبار لخروج الماء * ولكن كان من الماء مايجري من غير فعل بشري ومنه ماهو كامن محتاج في استنباطه الى حفر وتعب * ومنه مايحتاج فيه الى تعب قليل كذلك العلم في النفوس البشرية منه مايخرج الى الفعل من القوة بغير تعلم بشريّ كحال الانبياء عليهم السلام فان علومهم تظهر من جهة الملأ الاعلى من

غير واسطة بشري * ومنه مايطول الجهد فيه كاحوال العامة من الناس لاسيما ذوو البلادة الذين كبر سنهم في الغفلة والجهل ولم يتعلموا زمن الصبا * ومنه مايكفي فيه السعي القليل كحال الاذكياء من الصبيان ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال الله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى) فالمراد باقرار نفوسهم المعنى الذي أشرنا اليه من كونها موجودة بالقوة دون اقرار الألسنة فانها لم تحصل من كلهم عند الظهور بل من بعضهم — وكذلك قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) معناه لئن اعتبرت أحوالهم شهدت نفوسهم وبواطنهم بذلك (فطرة الله التي فطر الناس عليها) فكل آدمي فطر على الايمان وما جاء الانبياء الا بالتوحيد ولذلك قال قولوا (لااله إلا الله) فانه لن يصادف الا من هو مصدق بالاله * وانما غلط في عينه أو صفته * ثم لما كان الايمان بالله مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس الى من أعرض فنسي وهم الكفار * والى من اجال خاطره فتذكر وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها — ولذلك قال تعالى (لعلهم يتذكرون) (وليتذكر أولو الالباب) (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والتذكر هو أكثر مايعبر به وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد * وكان التذكر ضربان (احدهما) أن يتذكر صورة كانت مكتسبة في قلبه بالعقل

ثم غابت عنه (والآخر) ان يكون تذكره لصورة مضمنة بالفطرة في الانسان * ولذلك قال المحققون التعلم ليس بجلب للانسان شيئا من خارج بل يكشف الغطاء عما حصل في النفوس بالفطرة كحال مظهر الماء من الارض ومظهر الصور في المرآة بالجلاء — وهذه حقائق ظاهرة للناظرين بعين العقل ثقيلة على من جمد به قصوره على أول رتبة صبيان المكتب في اعتلاق طبعهم بسوابق الخيالات من ظواهر الالفاظ من غير تحقيق لها *

﴿ بيان أنواع العقل ﴾

اعلم ان العقل ينقسم الى غريزي والى مكتسب فالغريزي هو القوة المستعدة لقبول العلم * ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة * والمكتسب المستفاد هو الذي يحصل من العلوم إما من حيث لا يدري كفيضان العلوم الضرورية عليه بعد التمييز من غير تعلم وإما من حيث يعلم مدركه وهو التعلم ولانقسام العقل الى قسمين قال علي رضي الله تعالى عنه

(رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع)
(ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع)
(كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع)

(والاول) هو المراد بقوله ماخلق الله خلقا اكرم عليه من العقل (والثاني) هو المراد بقوله عليه السلام لعلي (اذا تقرب الناس بابواب البر فتقرب انت بعقلك (والاول) يجري مجرى البصر

للجسم (والثانى) يجرى مجرى نور الشمس ولا منفعة فى النور عند عمى البصر ولا يجدى البصر عند عدم النور فكذلك بصر الباطن وهو العقل وهو أشرف من البصر الظاهر اذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس اضر من عمى الفرس ولمشابهة بصره الباطن الظاهر قال تعالى (ما كذب الفؤاد مارأى) وقال (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) وسمى ضده عمى قال تعالى (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور) وقال (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا) وبالجملة من لم يكن بصيرة عقله نافذة فلا تعلق به من الدين الا قشوره بل خيالاته وأمثلته دون لبابه وحقيقته فلا تدرك العلوم الشرعية الا بالعلوم العقلية فان العقلية كالادوية للصحة والشرعية كالغذاء والنقل جاء من العقل وليس لك أن تعكس * والنفس المريضة المحرومة من الدواء تتضرر(١) بالاغذية ولا تنتفع ولذلك قال تعالى (في قلوبهم مرض) لما كانوا لا ينتفعون بالقرآن * والمقلد الاعمى اذا تأمل اموره واد الشرع يتراءى له امور متناقضة وهى كذلك بالاضافة الى مافهمه * ثم قد تجبن نفسه عن التأمل فيه لضعف عقله وخور طبعه فيتكلف الغفلة عنه خيفة ان ينكسر تقليده * وقد يتأمله فيدرك تناقضه فيتحير ويبطل يقينه

(١) قال تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين (اى الخارجين عن الفطرة الاصلية والسلامة القلبية)

ولو نظر بعين البصيرة لبطل التناقض ورأى كل شيء في موضعه * ومثاله مثال الاعمى الذي دخل داراً فعثر بالكوز والطشت وأثاث الدار فقال لم وضعتم هذا على الطريق لم لاتردونها الى محلها * فقيل له ان كلا في موضعه ولكن الخلل في البصر * فهذا بيان نسبة العلم المستفاد من العقل *

(واعلم) ان المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينقسم الى المعارف الدنيوية والاخروية * وطريقاهما متنافيان فمن صرف عنايته الى أحدهما قصرت بصيرته في الآخر على الاكثر ـ ولذلك ضرب عليّ رضي الله عنه ثلاثة أمثلة * فقال ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي ميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين اذا أرضيت احداهما أسخطت الاخرى ــ ولذلك نرى الاكياس في أمور الدنيا جهالا في أمور الآخرة وبالعكس * ولذلك قال عليه السلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت * وقال لمن نسب بعض الصالحين الى البله (أكثر أهل الجنة البله) يعني في أمور الدنيا ــ ولذلك قال الحسن البصري أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين * ومهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين فلا يصدنك عن قبوله انه لو كان حقيقياً لادركه الاكياس من أرباب الدنيا ودقائق الصناعات الهندسية وغيرها إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ـ فكذلك أمر الدنيا والآخرة ـ ولذلك قال

تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) الآيتين وقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحيـاة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولا يكاد يجمع بينهما الا من رشحه الله لتدبير الخلق في معاشهم ومعادهم وهم الانبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من قوة تتسع لجميع الامور ولا تضيع فأما النفوس الضعيفة اذا شغلت بأمر انصرفت عن غيره ولن تقـدر على الاستكمال منهما جميعاً *

﴿ بيان وظائف المتعلم والمعلم في العلوم المسعدة ﴾

أما المتعلم فوظائفه كثيرة وتجمع تفاصيلها عشر جمـل *

(الوظيفة الاولى) أن يقدم طهارة النفس عن رديء الاخلاق فكما لا تصح عبادة الجوارح في الصلاة الا بطهارة الجوارح والعلم عبادة النفس وفي لسان الشرع عبـادة القلب (١) فلا يصح إلا بطهارة القلب عن خبائث الاخلاق وأنجاس الصفات قال عليـه السلام (بني الدين على النظافة) وهو كذلك باطناً كما انه كذلك ظاهراً وقال تعالى (انما المشركون نجس) فنبه به على ان الطهارة والنجاسة غير مقصورتين على الظاهر ـ ولذلك قال عليه السلام

---

(١) لما كان العالم نوعين أعلى وأسفل ـــ أمري وخلقي وفي لسان بعض العرفاء تدويني وتكويني وكان التكوين طبق التدوين لانه ظله خص الشرع غالبا اسم القلب بالحقيقة الانسية العليا والنفس بالخليقة الانسانية التكوينية فتدبر.

(لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب) والقلب منزل الملائكة ومحل نظرهم ومهبط اثرهم * والصفات الردية كلاب نابحة * ومهما اعتقد في بيت من طين وحيوان سمي كلباً وهو كسائر الحيوانات شكلا فبأن يعتقد في بيت الدين وصفات لاتساوي سائر الصفات المحمودة أولى * وبيت الدين هو القلب وعليه تغلب الكلاب مرة والملائكة أخرى فإن قلت فكم طالب ردي الاخلاق حصل العلوم فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقي الديني الجالب للسعادة فما يحصله صاحب الاخلاق الردية حديث ينظمه بلسانه مرة وبقلبه أخرى وكلام يردده * ولو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه فان أول درجات العلم أن يعرف ان المعاصي سموم مهلكة مبطلة للحياة الابدية فان منشأها الصفات الردية * وهل رأيت من عرف السم فتناوله * ولهذا قال عليه السلام (من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعداً) ولهذا قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون الا لله أي العلم امتنع وأبى أن يحصل وماحصل كان حديثاً ولم يكن علماً تحقيقياً * فان قلت اني أرى جماعة من فضلاء الفقهاء قد تبحروا فيها مع سوء اخلاقهم * فيقال لك اذا عرفت مراتب العلوم ونسبتها الى سلوك سبيل السعادة عرفت ان ما يعرفه اولئك الفقهاء قليل الغناء في المقصود وان كان لاينفك عن تعلق به في حق من يقصد به التقرب (الوظيفة الثانية) أن يقلل علائقه من الاشغال الدنيوية ويبعد

ولهذا يجب صيانة العوام عن مجالس أهل الاهواء كما يصان الحرم عن مخالطة المفسدين * فأما من قويت في الدين شكيمته واستقر في نفسه برهانه وحجته فلا بأس عليه بالمخالطة بل الاحب المخالطة والاصغاء الى الشبه والاشتغال بحلها ويكون به مجاهداً فان القادر يستحب له التهجم على صف الكفار والعاجز يكره له ذلك * ومن هذا الاصل غلط من ظن ان وظائف الضعفاء كوظائف الاقوياء في الدين حتى قال بعض مشايخ الصوفية من رآني في الابتداء قال صديقاً * ومن رآني في الانتهاء قال زنديقاً * يعني ان الابتداء يقتضي المجاهدة الظاهرة للاعين بكثرة العبادات وفي الانتهاء يرجع العمل الى الباطن فيبقى القلب على الدوام في عين الشهود والحضور وتسكن ظواهر الاعضاء فيظن ان ذلك تهاون بالعبادات وهيهات ـ فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس (الوظيفة الخامسة) المتعلم أن لا يدع فنّاً من فنون العلم ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه * ثم إن ساعده العمر وأتته الاسباب طلب التبحر فيه فان العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معادياً لذلك العلم بسبب جهله به فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) قال الشاعر

(ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مراً به الماء الزلالا)

فلا ينبغي أن يستهين بشيء من أنواع العلوم بل ينبغي أن يحصل كل علم ويعطيه حقه ومرتبته فان العلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد الى الله أو معينة على أسباب السلوك * ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصد * والقوّام بها حفظة كحفظة الرباطات والثغور على طريق الجهاد والحج ولكل واحد منها رتبه (الوظيفة السادسة) أن لا يخوض في فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب فيبدأ بالاهم فالاهم ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا وبعضها طريق الى بعض * والموفق مراعي ذلك الترتيب والتدريج قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده من كل علم يتحراه الترقي الى مافوقه * وينبغي أن لا تحكم على علم بالفساد لوقوع الاختلاف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب العلم بالعمل فيرى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنه لو كان لها أصل لادركها أربابها * وقد مضى كشف هذه الشبهة في كتابنا معيار العلم ويرى قوم يعتقدون صحة النجوم لصواب اتفق لواحد * وطائفة يعتقدون بطلانه لخطأ اتفق لواحد والكل خطأ بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم يستقل به كل شخص * ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله (الوظيفة السابعة) ان العمر اذا لم

يتسم لجميع العلوم فينبغي أن يأخذ من كل شيء أحسنه فيكتفي بشمة من كل علم ويصرف الميسور من العمر الى العلم الذي هو سبب النجاة والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهي معرفة الله (١) على الحقيقة والصدق * فالعلوم كلها خدم لهذا العلم وهذا العلم حر لا يخدم غيره * ولهذا قال تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وليس المراد تحريك عضلات اللسان بهذه الحروف ولذا قال (من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة) فان حركة الاطراف قليل الغناء اذا لم يكن مؤثرا في القلب أو لم يكن صادرا عن اثر راسخ في القلب اوله اعتقاد يسمى ايمانا * ثم ينتهي ترتيبه الى مثل ايمان ابي بكر الذي لو وزن بايمان العالمين لرجح هذا مع التصريح بانه ما فضلكم بكثرة صيام وصلاة ولكن بسر وقر في قلبه * فان كان منتهى العلم بالله اعتقاد ما اعتقده المقلد المتكلم المتعلم بتحرير الدليل فما عندي ان هذا يعجز عنه عمر وعثمان وكافة الصحابة حتى كان قد فضلهم ابو بكر به — وبهذا يستبين للمنصف ان طريق الصوفية وان كان يرى مائلا عن اكثر الظواهر فمشهود له من الشرع بشواهد قوية فلا ينبغي ان يعاديها الجاهل لجهله وقصوره عنها * وعلى الجملة فمعرفة

١ وهي لا تنال الا بأمرين حرية العقل النظري المحررة له من رق التقليد والوهم — وحرية العقل العملي المحررة له من عبودية الجسم فاذا تم له هاتان الحريتان يصل الى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الله غاية كل معرفة وثمرة كل علم على المذاهب كلها * وقد روى انه رؤي صورتا حكيمين من الحكماء المتعبدين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها (ان احسنت كل شيء فلا تظنن انك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم انه مسبب الاسباب وموجد الاشياء) وفي يد الآخر (كنت قبل ان عرفت الله أشرب واظما حتى اذ عرفته رويت بلا شرب) (الوظيفة الثامنة) ان تعرف معنى كون بعض العلوم أشرف من بعض فان شرف العلم يدرك بشيئين (أحدهما) بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة علم الدين الحياة الابدية التي لا آخر لها فكان أشرف من علم الطب الذي ثمرته حياة البدن الى غاية الموت *واما الحساب اذا اضفته الى الطب فالحساب أشرف باعتبار وثاقة دلالاته فان العلوم بها ضرورية غير متوقفة على التجربة بخلاف الطب * والطب أشرف باعتبار ثمرته فان صحة البدن اشرف من معرفة كمية المقادير* والنظر الى شرف الثمرة أولى من النظر الى وثاقة الدليل * وأشرف العلوم ثمرة العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يعين عليه فان ثمرته السعادة الابدية (الوظيفة التاسعة) أن تعرف أنواع العلوم بقول جلي وهي ثلاثة * علم يتعلق باللفظ من حيث يدل على المعنى وعلم يتعلق بالمعنى المجرد * أما المتعلق باللفظ فهو ما عرف به المعاني بالحس وأريد ان تعرف الالفاظ الموضوعة بالاصطلاح للدلالة عليها وهي قسمان (أحدهما) علم اللغات والآخر لواحقها كعلم الاشتقاق

والاعراب والنحو والتصريف وعلم العروض والقوافي * وقد ينتهي الى العلم بمخارج الحروف وما يتعلق به * وأما المتعلق بالمعنى من حيث يدل باللفظ عليه فعلم الجدل والمناظرة والبرهان والخطابة فان الناظر في هذه العلوم عالم باللغة وموجب الالفاظ وعالم بالمعاني وعالم بترتيب ايرادها وكيفية نظمها على وجه يؤدي الى تحصيل العلم اليقيني فيكون برهاناً أو الى افحام الخصم فيكون جدلا أو الى اقناع النفس الاقناع الذي يبتغى للاستدراج والحالة فيسمى خطابة ووعظاً ويسمى أيضا دليلا فانها تدل المخاطبين على المقاصد وتسوقهم الى اعتقاداتهم التي فيها نجاتهم وعليه أكثر دلالات الاخبار (١) والقرائن المستدل بها على الكفار وهو أكثر أنواع الادلة نفعاً وأعمها في حق الجماهير جدوى * فأما البرهان الحقيقي اليقيني فلا يستقل بفهمه ودركه إلا أكابر العلماء المحققين الذين لاتسمح الاعصار بآحادهم * وأما الجدل فأقل الاقسام فائدة في الارشاد إذ المحقق لا يقنع بما يبني دلالته على تسلم الخصم وليس مسلما في نفسه * والعامي لا يفهمه بل يكل فهمه عن دركه والمشاغب المناظر في أكثر الامر اذا أفحم استمر على اعتقاده وأحال بالقصور على نفسه وقال لو كان صاحب مذهبي حيا

(١) يعني عند اجرائها على الظواهر المتبادرة منها وهي المفاهيم الجمهورية والا فالتغافل في حقائقها يهدي الى دقائق العلوم البرهانية اليقينيه انتهى مصححه .

وحاضراً لقدر على الانفصال عنه * وأكثر ماذكره المتكلمون في مناظراتهم مع الفرق جدليات — وهكذا مايجري في مناظرات الفقه — ولذلك لا تنكشف مناظرة عن تنبه متنبه برجوعه عن مذهبه الى غيره * وأما القسم الثالث المتعلق بالمعنى فضربان علمي مجرد وعملي * أما العلمي فمعرفة الله تعالى ومعرفة الملائكة والانبياء أي معرفة النبوة ومراتبها ومراتب الملائكة وملكوت السموات والارض وآيات الآفاق والانفس وما بث فيها من دابة * ومعرفة الكواكب السماوية والآثار العلوية * ومعرفة أقسام الموجودات كلها * وكيفية ترتب البعض منها على البعض وكيفية ارتباط البعض منها بالبعض وكيفية ارتباطها بالاول الحق المقدس عن الارتباط بغيره ومعرفة القيامة والحشر والنشر والجنة والنار والصراط والميزان ومعرفة الجن والشياطين وتحقق ان ما سبق الى الافهام العامية من ظاهر هذه الالفاظ حتى تخيلوا منها في الله تعالى أموراً من كونه على العرش وفوق العالم بالمكان وقبله بالزمان وما اعتقدوه في الملائكة والشياطين وفي أحوال الآخرة من الجنة والنار هل هي كما اعتقدوه من غير تفاوت أو هي امثلة وخيالات ولها معان سوى المفهوم من ظاهرها * فتحقق هذه الامور بالصدق والحقيقة الصافية عن الشك ورجم الظنون المنفكة عن المريه والتخمين هي العلوم النظرية المجردة عن العمل * وأما العملي فهي الاحكام الشرعية والعلوم الفقهية والسنن النبوية وذلك معرفة سياسة النفس

مع الاخلاق كما مضى ومعرفة تدبير أهل البيت والولد والمطعم والملبس وكيفية المعيشة والمعاملة * وهذا علم الفقه ويشتمل على ربع المعاملات والنكاح والعقوبات * ثم اذا عرف أنواعها فينبغي أن يعرف مراتبها كيلا يضيع العمر الا في المقصود أو فيما يقرب منه * وأما المقتنع بالقسم الاول المتعلق باللفظ فمختصر على القشر المحض * والقانع منه بالنحو والاعراب والعروض ومخارج الحروف فقانع أيضاً من القشرة بأوجهها * وأما الخائض في تعرف الطريق الذي به يتميز الدليل الحقيقي عن الاقناع فمشتغل بأمر مهم فان اقتصر عليه فهو مقتصر على الآلة والوسيلة كمن يقصد الحج فيشتري الجمل ويعد الزاد والراحلة ويقعد في بيته فذلك مهم وضروري لكونه آلة ضرورية ولكن اذا لم يستعمل في المقصد لافائدة له فلا خير في مجرد السلاح اذا لم يستعمل في القتال * وأما الخائض في العلوم العملية المقتصر عليها أعني الفقهيات وتفصيلها فحاله أقرب من حال المقتصر على اللغات فهو بالاضافة اليه عظيم القدر كما ان العلم باللغات أيضاً بالاضافة الى العلم بالرقص والزمر عظيم ولكن ان اضيف الى جانب المقصود فهو في غاية البعد ولا يتشكل ذلك الا بمثال * فاذا علق السيد عتق عبده على أن يحج ووعده بعد ذلك بما ينال به الرئاسة فله ثلاث مقامات في الوصول الى سعادة العتق ومابعده (الاول) تهيئة الاسباب بشراء الناقة وخرز الراوية واعداد الزاد (والآخر) السلوك لمفارقة الوطن والتوجه الى المقصد

منزلا بعد منزل (الثالث) الاشتغال بالحج ركننا فركننا ثم العتق معه مع التعرض لاستحقاق المال الموصل الى السعادة وله في كل مقام منازل من أول اعداد الاسباب الى آخره ومن أول سلوك الطريق الى آخره * وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من ابتدأ بالاستعداد ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك * فوزان الحج مما نحن فيه كمال النفس بطهارة الاخلاق وقطع الرذائل كلها وكمالها مع ذلك بانكشاف الحقائق لها * ومثال المال الموصل الى الرئاسة هاهنا الموت الذي يكشف الحجاب الحائل بينه وبين رتبة مشاهدة نفسه وكمالها وجمالها ليرى نفسه من الكمال في أعلى عليين فيفرح به ويسر سروراً مؤبداً * ومثال سلوك منازل الطريق منزلا بعد منزل سلوك مهذب الاخلاق في محو الاخلاق الرديئة عن نفسه خلقاً بعد خلق وطالب العلوم النظرية التي ذكرناها دون سائر العلوم علما بعد علم * ومثال الاستعداد بخرز الراوية وشراء الزاد والناقة سائر العلوم الخادمة للعلوم النظرية من الفقهيات واللغويات * فالمتعلم للفقه كالخارز للراوية والمقتصر عليه كالمقتصر على الراوية * والمقتصر على اللغة كالمقتصر على دباغة الجلد الذي يتخذ منه الراوية مثلا فان الحاج لا يستغني عن الدباغ ومستغرق اوقاته بمعرفة تفريعات الفقه على مايشتمل عليه الخلافيات في هذا العصر مما لم يعهد في عصر الصحابة كمستغرق أوقاته في احكام الراوية بعد سلوك الخيوط التي يخرزها وتحسن الخرز * فان قلت

فهذا ان قلته عن اعتقاد فهو خلاف اجماع الفقهاء وان قلته حكاية فمن المعتقد لهذا المذهب * فأقول ان أقوله الا حكاية عن هذا المذهب الذي مدار أكثر هذا الكتاب على وضعه وهو مذهب التصوف * وقد اتفقوا على المعنى الذي يفهمه هذا المثال وان لم يكن هذا المثال بعينه من جهتهم * فان قلت فهل ماقالوه حق أم لا * فأقول ليس هذا الكتاب لبيان الحق والباطل بالبرهان في هذه الامور بل هي وصايا تنبه على الغفلة وترشد الى مواضع الطلب كي لا يغفل الانسان عما قالوه فان امكانه ليس ببعيد في أول الامر فليبحث المتعلم المسترشد عنه ليعرف سره وغائلته * فان قلت اني وان كنت لا أعتقد مذهب التصوف فلا تسمح نفسي أيضاً بعد أن استغرقت عمري في الفقه خلافا ومذهبا أن أنحط عند الصوفية الى هذه الرتبة الخسيسة فأرى بهذه العين فلم قلت ان مذهبهم يوجب هذا (فاعلم) انك تتحقق السبب ان علمت تفاصيل ماسبق من ارتباط السعادة بمحو واثبات عن النفس وفيها وان المحو لما لا ينبغي أن يكون تزكية لها والاثبات لما ينبغي أن يكون تكميلا لها بكشف الحقائق فيها — وذلك لا يحصل إلا بتهذيب الاخلاق والتفكر في آلاء الله وملكوت السموات والارض حتى تنكشف أسرارها * والفقه انما يحتاج اليه من حيث انه يحتاج اليه البدن * والبدن لا يتقى الا بعلم الابدان وهو الطب * وعلم الاديان وهو الفقه اذ الآدمي خلق بحيث لا يمكن أن يعيش

وحده كالبهيمة الوحشية بل يفتقر الى أن يكون بين جمع متعاونين على أشغال كثيرة في تهيئة المطاعم والملابس وآلاتها * ولا بد اذ كان لهم اجتماع من أن يكون بينهم عدل وقانون في المعاملة عليه يترددون ولولاه لتنازعوا وتقاتلوا وهلكوا * فالفقه هو بيان ذلك القانون وتفصيله في ربع النكاح والمعاملات والعقوبات فالبدن في طريق السائرين الى الله تعالى يجري مجرى الناقة والراوية في طريق الحج * ومصالح الابدان كمصالح الناقة * والراوية والعلم والمتكفل بمصالح البدن كالصناعة المتكفلة بخرز الراوية وتقديرها وتطهيرها * ورتبته من هذا المقصد كرتبتها من ذلك المقصد ان صح ما ذكروه في السلوك والاستعداد والمقصد * وانهم يقولون لولا ارادة الله عمارة الدنيا لارتفعت الحجب وزالت الغفلة وتوجه الخلق كلهم الى سبيل الله وترك كل فريق ما هو بعيد عن المقصود ولكن كل حزب بما لديهم فرحون وبه قوام العالم بل لولاه لبطلت الصناعات * فلو لم يعتقد الخياط والحائك والحجام في صنعته ما يوجب ميله اليها لتركها وأقبل الكل على أشرف الصنائع وابطلت كثرة الصنائع فان هذه الاسباب ضرورية في تهيئة الاسباب من أرباب الصنائع فمن رحمة الله غفلتهم بوجه من الوجوه * وعليه حمل بعضهم قوله عليه السلام (اختلاف أمتي رحمة) يعني اختلاف هممهم ولو عرف الكناس ما في صناعته لتركها ولاضطر العلماء والخلفاء والاولياء ان يتولوها بأنفسهم — وكذلك الدباغة والحدادة والزراعة وجميع

الامور * فلولا ان الله تعالى حبب علم الفقه والنحو ومخارج الحروف والطب والفقه في قلوب طوائف لبقيت هذه العلوم معطلة ولتشوش النظام الكلي وليس من شرط المتجرد لعلم أو صناعة ان يطلع على قدر رتبته ونسبته الى من فوقه بل الى من تحته * وانما المطلع على جملة مراتب العلوم هو المتكفل بالعلوم كلها وهو الذي آتاه الله الحكمة وأراه الاشياء على ما هي عليه* فهذا جواب هؤلاء * واليك الرأي بعد هذا في الاقتصار على ما أنت فيه أو سلوك طريق هؤلاء والبحث عن هذا الفن لتعرف حقيقة الحق فيه (الوظيفة العاشرة للمتعلم) ان يكون قصده في كل ما يتعلمه في الحال كمال نفسه وفضيلتها * وفي الآخرة التقرب الى الله عز وجل ولا يكون قصده الرئاسة والمال ومباهاة السفهاء ومماراة العلماء فقد قال عليه السلام (من تعلم العلم ليباهي به السفهاء ويماري به العلماء دخل النار) وقد سبق ان العلوم لها منازل في الوصول بها الى الله عز وجل والقوام بتلك العلوم كحفظة الرباطات في طريق الجهاد * فاذا عرف كل أحد رتبته ووفاه حقه وقصد به وجه الله تعالى لم يضع اجره فان الله يرفعه بقدر علمه في الدنيا والآخرة * وقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) وقال (هم درجات عند الله) ولا ينبغي ان يغتر رأيك في العلوم بما حكيناه من طريق الصوفية فانهم لا يعتقدون حقارة العلوم بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها * وما ذكروه انما

أوردوه بالاضافة الى مرتبة الاولياء والانبياء وذلك جار مجرى استحقارك الصارفة عند قياسهم بالسلاطين والوزراء * وذلك لا يوجب نقيصتهم مهما قستهم بالكناسين والدباغين ولا تطالب من نزل عن الرتبة القصوى استحاطة القدر بها فان الرتبة القصوى للانبياء ثم للاولياء ثم للعلماء على تفاوت مراتبهم ثم للصالحين فى الاعمال * وبالجملة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ومن قصد التقرب الى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة * فهذه هي الوظائف للمتعلم * وأما وظائف المعلم المرشد فهي ثمان (واعلم) قبل كل شيء ان للانسان في العلم أربعة أحوال كما في اقتناء الاموال اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال وحال انفاق على نفسه فيكون منتفعا وحال افادته غيره بالانفاق فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله * فكذلك العلم كالمال ولصاحبه حال استفادة وحال تحصيل وهو فيه محصل مستغن عن السؤال وحال استبصار وهو تفكره في المحصل وحال تبصير وتعليم وهو أشرف أحواله * فمن أصاب علما فاستفاده وأفاد كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها وهي مضيئة والمسك الذي يطيب وهو طيب * ومن أفاد غيره ولم ينتفع به فهو كالدفتر يفيد غيره وهو خال عنه وكالمسن يشحذ غيره ولا يقطع أو كذبالة المصباح تضيء غيرها وهي تحترق * فأول وظائف المعلم ان يجري المتعلم منه مجرى بنيه كما قال عليه السلام (انما انا لكم مثل

الوالد لولده) وليعتقد المتعلم ان حق المعلم أكبر من حق الأب فانه سبب حياته الباقية والأب سبب حياته الفانية * وكذلك قال الاسكندر لما قيل له أمعلمك أكرم عليك أم أبوك * فقال بل معلمي وكما أن من حق بني الأب الواحد ان يتحابوا ولا يتباغضوا — فكذلك حق بني المعلم بل حق بني الدين الواحد فان العلماء كلهم مسافرون الى الله تعالي وسالكون اليه الطريق * والترافق في الطريق يوجب تأكد المودة فأخوة الفضيلة فوق اخوة الولادة * وانما منشأ التباغض ارادتهم بالعلم والمال والرياسة فيخرجون به عن سلوك سبيل الله ويخرجون عن قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) ويدخلون تحت قوله (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)

(الوظيفة الثانية) أن يقتدي بصاحب الشرع فلا يطلب على افادة العلم أجراً وجزاء قال تعالى (قل لا أسئلكم عليه أجراً) فان من يطلب المال وأغراض الدنيا بالعلم كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه فجعل المخدوم خادماً إذ خلق الله الملابس والمطاعم خادمة للبدن وخلق البدن مركباً وخادماً للنفس * وجعل النفس خادمة للعلم * فالعلم مخدوم ليس بخادم * والمال خادم ليس بمخدوم ولا معنى للضلال الا عكس هذا الامر * والعجب ان الامر قد انتهى بحكم تراجع الزمان وخلو الاعصار عن علماء الدين الى أن صار المتعلم يقلد معلمه ليستفيد منه ويجلس بين يديه ويطمع في

أغراض دنيويه عوضاً عن استفادته — وهذا غاية الانتكاس ومنشأ ذلك طلب المعلمين الرياسة والتجمل بكثرة المستفيدين لقصور علمهم وعدم ابتهاجهم بكمال علومهم الذاتية فأطمع ذلك المستفيدين منهم فيهم (الوظيفة الثالثة) ألا يدخر شيئاً من نصح المتعلم وزجره عن الاخلاق الردية بالتعريض والتصريح ومنعه أن يتشوق الى رتبة فوق استحقاقه وأن يتصدى لاشتغال فوق طاقته وأن ينبهه على غاية العلوم * وانما هي السعادة الاخروية دون أغراض الدنيا فان رأى من لا يتعلم الا لاجل طلب الرياسة ومباهاة العلماء لم يزجره عن التعلم فاشتغاله بالتعلم مع هذا القصد خير من الاعراض فانه مهما اكتسب العلم تنبه بالآخرة لحقائق الامور وان الطالب بالعلم لاغراض الدنيا مغبون * وقد بين العلماء هذا المعنى بقولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله بل أقول ان كان الناس لايرغبون في تعلم العلم لله فينبغي أن يدعوهم الى نوع من العلم يستفاد به الرياسة بالاطماع في الرياسة حتى يستدرجهم بعد ذلك الى الحق — ولهذا روي الرخصة في علم المناظرة في الفقهيات لانها بواعث على المواظبة لطالب المباهاة أولا ثم بالآخرة يتنبه لفساد قصده ويعدل عنه الى المنهج القويم ويجري هذا المجرى من قصدنا في ارهاق الصبي الى التعلم بالاطماع في الرياسة انا نطمعه فيه بالصولجان وشراء الطيور وأسباب اللعب ونطلق له ذلك في بعض الاوقات لتنبعث دواعيه الى التعلم ابتداء

طمعاً فيما رعيناه آخراً تدريجاً * وقد جعل الله تعالى قصد الرياسة من تعلم العلم حفظاً للشرع والعلم ويجري تحريض المتعلمين على العلم بالاطماع في الرياسة وحسن الذكر مجرى الحب يبث حوالي القمح والملواح (١) المقيد على الشبكة ومجرى شهوة الغذاء والنكاح التي خلقهما الله داعية الى الفعل الذي فيه بقاء الشخص والنوع * ولولا هذه المصلحة في المناظرة لما كان يجوز أن يسمح فيهما بحال من الاحوال فانها ليست تفضي الى تغيير المذاهب وترك المعتقد (الوظيفة الرابعة) انه ينبغي أن ينهي عما يجب النهي عنه بالتعريض لا بالتصريح لان التعريض يؤثر في الزجر والتصريح بالزجر مما يغري بالمنهي عنه قال عليه السلام (لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه الا وفيه شيء) وينبه على هذا قصة آدم وحواء وما نهيا عنه * وقد قيل رب تعريض أبلغ من تصريح — وذلك ان النفوس الفاضلة لميلها الى الاستنباط والتنبه للخفيات تميل الى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر * والتعريض لا يهتك حجاب الهيبة * والتصريح يرفعه بالكلية فيستفيد المنهي جراءة على المخالفة اذا اضطر الى المخالفة مرة أخرى (الوظيفة الخامسة) ان المتكفل ببعض العلوم لا ينبغي له أن يقبح في نفس المتعلم العلم الذي ليس بين يديه كما جرت عادة معلمي اللغة من تقبيح الفقه عند المتعلمين وزجرهم عنه وعادة الفقهاء من تقبيح العلوم العقلية

١ هكذا بالاصل ولعل الاصح القمط أو اللوح

والزجر عنها بل ينبه على قدر العلم الذي فوقه ليشتغل به عند استكمال ما هو بصدده * وان كان متكفلا بعلمين مترتبين فاذا فرغ من احدهما رقى المتعلم الى الثاني وراعى فيه التدريج

(الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلمين على قدر أفهامهم فلا يرقيهم الى الدقيق من الجلي والى الخفي من الظاهر هجوماً وفي اول رتبة ولكن على قدر الاستعداد اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم حيث قال (انا معشر الانبياء امرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم) وقال (ما أحد يحدث قوماً حديثاً لا يبلغه عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم) وقال علي رضي الله عنه وقد أومأ الى صدره (ان ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة) وقال عليه السلام (كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) وسئل بعض المحققين عن شيء فأعرض فقال السائل أما سمعت قول رسول الله عليه السلام (من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار) فقال اترك اللجام واذهب فان جاء من يفقه فكتمته فليلجمني به ولما قال تعالى (ولا تأتوا السفهاء أموالكم) نبه على ان حفظ العلم وامساكه عمن يفسده العلم أولى * ولما قال تعالى (فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم) نبه على ان من بلغ رشده في العلم ينبغي أن يبث اليه حقائق العلوم ويرقى من الجلي الظاهر الى الدقيق الخفي

الباطن فليس الظلم في منع المستحق بأقل من الظلم في اعطاء غير المستحق * وقال المتقدم في مثل ذلك *

(فمن منح الجهال علماً أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم)

وادخار حقائق العلوم عن المستحق لها فاحشة عظيمة * قال الله تعالى (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمون)

(الوظيفة السابعة) ان المتعلم القاصر ينبغي أن يذكر له ما يحتمله فهمه ولا يذكر له ان ماوراء ماذكرت لك تحقيقاً وتدقيقاً أدخره عنك فان ذلك يفتر رأيه في تلقف ما ألقي اليه بل يخيل اليه انه كل المقصود حتى اذا استقل به رقي الى غيره بالتدريج * ومن هذا يعلم ان من تقيد من العوام بقيد الشرع واعتقد الظاهر وحسن حاله في السيرة فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده وينبه على تأويلات الظواهر فان ذلك يؤدي الى أن ينحل عنه قيد الشرع ثم لا يمكن أن يقيد بتحقيق الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور فينقلب شيطاناً وشريراً بل ينبغي أن يرشد الى علم العبادات الظاهرة والامانة في الصناعة التي هو بصددها وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة على الوجه الذي نطق به القرآن وأن لا يولد له شبهة فان تولدت شبهة وتشوقت نفسه الى حلها فيعالج دفع شبهته بما يقنع به من كلام عامي وان لم يكن على حقائق الادلة * ولا ينبغي أن يفتح له باب البحث والطلب فانه

يعطل عليه الصناعة التي بها تعمر الارض وينتفع الخلق * ثم يقصر عن درك العلوم فان وجد ذكيا مستعداً لقبول الحقائق العقلية جاز أن يساعده على التعليم الى أن تنحل له الشبهات * وقد حكي عن بعض الامم السالفة انهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه فان وجدوا فيه خلقاً رديا منعوه التعلم أشد المنع * وقالوا انه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردي فيصير العلم آلة شر في حقه وان وجدوه مهذب الاخلاق قيدوه في دار العلم وعلموه وما اطلقوه قبل الاستكمال خيفة أن يقتصر على البعض ولا تكمل نفسه فيفسد به دينه ودين غيره — وبهذا الاختبار قيل (نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب فذلك يفسد الدين وهذا يفسد الحياة الدنيا)

(الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم للعلم العملي أعني الشرعيات عاملا بما يعلمه فلا يكذب مقاله بحاله فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد — وذلك أن العمل مدرك بالبصر والعلم بالبصيرة وأصحاب الابصار اكثر من أرباب البصائر فليكن عنايته بتزكية اعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره * وكل طبيب يتناول شيئاً وزجر الناس عنه وقال لا تتناولوه فانه على الهزؤ والسفه وانهم واعتقد فيه أنه انفع الاشياء * وانما هو الذي سم يعدل يريد أن يستأثر به فينقلب النهي اغراء وتحريضاً * والمتعظ من الواعظ يجري مجرى الطين من النقش والظل من العود وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه وكيف يستوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل *

لاتنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

بل قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم) ولذلك قيل وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر غيره لانه يقتدى به فيحمل اوزاراً مع اوزاره كما قال عليه السلام (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامه) فعلى كل عاص في كل معصية وظيفة واحدة وهو تركها وترك الاظهار كيلا يتبعه الناس فاذا أظهر فقد ترك واجبين وان أخفى فقد ترك أحد الواجبين * ولذلك قال على رضي الله تعالى عنه (قصم ظهري رجلان جاهل متنسك وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم يغرهم بتهتكه)

﴿ بيان تناول المال وما في كسبه من الوظائف ﴾

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الدنيا مزرعة للآخرة ففيها الخير النافع وفيها السم الناقع * ومثالها مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لايدري * وقبل المال من الخيرات المتوسطة فانه ينفع من وجه ويضر من وجه فلم يكن بد من الاقتصار على النافع منه والاحتراز من المهلك منه * وأصل ذلك معرفة رتبة المال من المقاصد فان أصل الامور كلها العلم بحقائق الاشياء فنقول على طالب السعادة الاخروية وظائف في حق المال من حيث جهة الدخل وجهة الخرج *

وقدر المتناول بالنية الواجبة في تناوله (الوظيفة الاولى) معرفة رتبته فقد سبق أن المقتنيات المرغوب فيها ثلاثة نفسية ثم بدنية ثم خارجية والخارجية ادناها رتبة والمال من جملة الخارجية وادناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما اذ النفس تخدم العلم والفضائل النفسية لتحصلها * والبدن يخدم النفس فيكون آلة والمطاعم والملابس تخدم البدن * والدراهم والدنانير تخدم المطاعم والملابس * وقد سبق أن المقصود من المطاعم ابقاء البدن ومن البدن تكميل النفس فمن عرف هذا الترتيب وراعاه فقد عرف قدر المال ووجه رتبته وعرف وجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس * ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن الى الغاية وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصلة الى الغاية فلا يركن اليه معتكفا بكنه همته عليه وبهذا النظر ينكشف له الشبهة في ذم الله تعالى المال في مواضع حيث قال (انما أموالكم وأولادكم فتنة) ومدحه حيث امتن به فقال (ويمددكم بأموال وبنين) فانه من حيث كونه وسيلة للآخرة محمود ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم ولذلك قال عليه السلام نعم المال الصالح * وقال تعالى (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعير للدابة فيضيع الدابة ويشتغل بتنقية الشعير وعد حباته وبناء حصن حواليه حتى تهلك الدابة جوعا — وهذا مثال من صرفته الدنيا عن الآخرة

وهو الخسران بل مثال الناس كلهم في الاغترار بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها * مثال راكبي سفينة متوجهين الى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة فأفضت بهم السفينة الى جزيرة ذات أسود واساود فأمروا بالخروج تهيئة للطهارة وان يكونوا على حذر من غوائل الجزيرة فرأوا حجرا مزبرجا وزهرا منورا فأعجبهم ذلك وشغفوا به فتباعدوا عن المركب ونسوا المركب والمقصد وبقوا لاهين حتى سارت السفينة وجن عليهم الليل فثارت عليهم الاسود تفترسهم والاساود تنتهشهم ولم يغن عنهم حجرهم وزهرهم شيئاً فيقول واحد منهم ياليتني كنت ترابا والآخر يقول ماأغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه * والآخر يقول ياحسرتا على مافرطت في جنب الله ولم يبق بأيديهم الاحسرة وندامة لا آخر لها ومجاورة الافاعى والاسود مع الخزى والنكال فهذا بعينه مثال المغترين بمتاع الدنيا * ولهذا الخطر العظيم استعاذ الخليل ابراهيم وقال (اجنبني وبني ان نعبد الاصنام) وعنى به هذين الحجرين الذهب والفضة اذ رتبة النبوة أجل من ان يخشى فيها ان تعتقد الالهية في شيء من الحجارة * ولهذا قال علي (ياحمراء غرى غيري ويابيضاء غرى غيري) ولذلك شبه عليه السلام طلاب الدنانير والدراهم المشغوفين بهما بعبدة الحجارة * فقال تعس عبد الدراهم تعس عبد الدنانير ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش (الوظيفة الثانية في مراعاة جهة الدخل والخرج) فالدخل اما بالاكتساب واما بالبخت أما البخت

ميراث او وجود كنز أو حصول عطيـة من غير سؤال * واما الكسب فجهاته معلومة * ومن أخذ من حيث كان مذموم شرعا فلا ينبغي أن يأخذ الا من وجهه* والوجوه الطيبة معلومة من الشرع فان وجد حلالاً طيباً فليأخذه وان كان حراما محضاً فليجتنبه* وان كان مشتبها والغالب انه حرام فليجتنبه * وان كان الغالب انه حلال فان قدر على الحلال المطلق من غير تعب فليترك * فان من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وان لم يتيسر الحلال المطلق فليأخذ منه قدر الحاجة فان كان يقدر على الحلال المطلق ولكن بعد طول التعب واستغراق الوقت * فان كان من العباد العاملين بالجوارح مع اعتقاد عامي مصمم فليشتغل بطلب الحلال فان تعبه في طلب الحلال عبادة كتعبه في سائر العبادات * وان كان من أصحاب القلوب وأرباب العلوم وكان يتعطل عليه ما هو بصدده لو استغرق أوقاته في الحلال المطلق فليأخذ من الذي يتيسر قدر حاجته فان المحظور المحض قد ينقلب مباحاً خوفاً من محظور آخر أشر منه * فمن غص بلقمة فله ان يتناول الخمر حذرا من فوات النفس * والعلم وعمل القلب لا يوازيه غيره * فالكل خدم له فكما يباح اتلاف مال الغير على النفس بل يحل تناول لحم الخنزير -- فكذلك في محـل الشبهة يتساهل في التحريض على العلم وعند هذا قد يثور شغب الجاهل مهما تناول العالم ما زجر عنه الجاهل اذ لا يدرك الجاهل تفاوت هذه الدقيقة بينهما وليكن العالم متلطفاً في ذلك كيلا يحرك سلاسل الشيطان

(الوظيفة الثالثة في المقدار المأخوذ) ومهما عرفت أن المال لماذا دائر فمعناه مقدار الحاجة المذكورة ولا غنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم وفي كل واحد ثلاث مراتب ادنى واوسط وأعلى * وادنى المسكن مايقل من الارض من رباط أومسجد أو وقف كيفما كان واوسطه ملك لاتزاحم فيه فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك وتبقى معك عمرك وهو على أقل الدرجات من حسن البناء وكثرة المرافق وهو حد الكفاية * واعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق وتتبعها زيادات لاتنحصر على مايرى عليه أرباب الدنيا واولو الرتب والاول هو قدر الضرورة اذ المقصود من المسكن أرض تقلك يحيط بها حائط يمنع عنك السباع ويظل عليك سقف يمنع المطر وحر الشمس وان يقنع به الا المتوكلون والاوسط هو حد الكفاية وما بعده خارج عن حد الدين وإقبال على أمر الدنيا أعني الاشتغال بزينتها * فاما الجلوس فيها مع الغفلة عنها دون ابتهاج بها وطمأنينة اليها فمن المباحات * وأما صرف الاوقات الى تزيينها فمباح للعوام على لسان الفقه الذي عقد لضرورة جهل العوام وقصورهم عن مشافهتهم بالمنع منه * فاما في طريق التصوف فحرام واعني بالتصوف ماخلق الانسان له من سلوك سبيل القرب الى الله تعالى والعبادات لامناقشة فيها — ولذلك قيل مباحات الصوفية فريضة وفريضتهم مباحات أى يقتصرون على قدر الضرورة من المباح ويواظبون على الفرائض كما يواظبون على هذه فهي عندهم

كالمباحات * وأما المطعم فهو الاصل العظيم اذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا ايضاً ثلاث مراتب ادناها قدر الضرورة وهو مايسد الرمق ويبقى معه البدن وقوة العبادة وذلك يمكن تقليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين * وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم الى حمصة * وبعضهم في الوقت عشرين يوماً * وقيل أربعين وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها * فان لم يقدر عليه فالدرجة الوسطى وهي في ثلث البطن كما ذكرناه من قبل * ولا ينبغي ان يزيد على القدر الذي حدده الشرع * فالزيادة عليه بطنة * ثم يقتصر ايضاً من نوعه على الوسط كما اقتصر من قدره على الوسط فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية من الجملة ولكن النظر يختلف في قدر الكفاية الى الوقت فرب انسان هو فارغ القلب من قوت يومه مشغول القلب بعده وينتهي حرصه الى ان يقدر لنفسه عمراً طويلا ويريد أن يفرغ قلبه طول عمره * ثم قد يقدر له حوائج فيطلب الاستظهار بالخزائن وهو الضلال المحض * والمدخر بالاضافة الى المستقبل ثلاث درجات أدناها قوت يوم وليلة وأعلاها ما يجاوز سنة واوسطها قوت سنة وأرفع الدرجات درجة من يلتفت الى غده وقصر همته على يومه ومن يومه على ساعته ومن ساعته على نفسه وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا مستعداً للارتحال * ومن لم يشتغل بهذا وكان فارغ

القلب عن قوت سنة فاشتغل بما وراءه كان من المطرودين المذكورين بقوله (يحسب أن ماله أخلده) * وأما الملبس فكذلك فيه ثلاث درجات فادناها من حيث القدر ما يستر العورة أو الجملة المعتاد سترها من أدنى الانواع وأخشنها وبالاضافة الى الوقت ما يبقى يوما وليلة كما نقل عن عمر رضى الله تعالى عنه انه رقع قميصه بورق شجر فقيل له هذا لا يبقى فقال او أحيا الى ان يفنى * وأوسطه ما يليق بمثل حاله من غير تنعم وترفه ولا ملبوس حرام كابر يسم غالب * وأعلاه جمع الثياب وطلب الترفه بها على ما عليه جماهير أهل الدنيا (وأما المنكح) فانه يزيد في حق من تاقت نفسه الى الوقاع وبحسبه تزيد الحاجة * وقد ذكرنا ما يحمد من المنكح وما يذم وفيما ذكرناه مقنع ومن ساعده من هذه الامور قدر كفايته ثم اشتغل قلبه بغيره كان مغبونا بل ماهونا * قال عليه السلام (من أصبح آمنا في سربه معافا في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) وذلك لان الدنيا بلاغ الى الآخرة وهذا القدر كاف في البلغة فالباقي فضل على الكفاية وزيادة ووجودها في حق العاقل كعدمها * (الوظيفة الرابعة في المخرج والانفاق) وكما للمدخل وجه معين فكذا المخرج فلا بد من مراعاة الترتيب فيه فالانفاق محمود ومذموم كالاخذ * والمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة وهو الصدقة المفروضة والانفاق على العيال * ومنه ما يكسب الحرية والفضيلة وهو ايثار الغير على النفس على الوجه المندوب

اليه شرعاً * والمذموم ضربان افراط وتفريط * فالافراط الانفاق أكثر مما يجب بحيث لا يحتمله حاله فيما لا يجب والاخلال بالاهم والصرف الى ما دونه * والتفريط المنع عما يجب الصرف اليه والنقصان من القدر الذي يليق بالحال * ومهما أخذ العبد المال من وجهه ووضعه في وجهه كان محمودا مأجورا * فان قلت فمن وسع الله عليه المال فأخذه وانفاقه بالمعروف اولى او الاعراض عن اخذه (فاعلم) ان الناس قد اختلفوا في هذا فقالوا الناس ثلاثة أصناف صنف هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات الى العقبى الا باللسان وحديث النفس وهم الاكثرون * وقد سموا في كتاب الله عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها * وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة اعتكفوا بكنه هممهم على العقبى ولم يلتفتوا أصلا الى الدنيا وهم النساك * وصنف ثالث متوسطون وفوا الدارين حقهما وهم الافضلون عند المحققين لان بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة * ومنهم عامة الانبياء عليهم السلام اذ بعثهم الله عز وجل لاقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد * وقيل ثلاثتهم المراد بقوله تعالى (وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون) فالمراعي للدنيا والدين كما يجب وعلى ما يجب جامعاً بينهما خليفة الله في أرضه فهو السابق عند قوم * فان قلت فقد قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (فاعلم) ان مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة بل هي افضل العبادات

قال عليه السلام (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله) فان قلت فقد قال بعض المحققين الناس ثلاثة رجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين * ورجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين * ورجل مشتغل بهما وذلك درجة المخاطرين * والفائز أحسن حالاً من المخاطر (فاعلم) ان فيه سرا وهو ان المنازل الرفيعة لا تنال الا باقتحام الاخطار * وانما هذا الكلام ذكر تحذيراً وتنبيهاً على خطر الخلافة لله تعالى في أمر عباده حتى لا يترشح لها من لا يقدر عليها * وقد حكي ان بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته في العلم والحكمة فاعتزل الناس وزهد في الدنيا فكتب اليه بعض الملوك قد اعتزلت ما نحن فيه فان علمت ان ما اخترته أفضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه ولا تحسبني اقبل منك قولا بلا حجة فكتب اليه (اعلم) انا عبيد لرب رحيم بعثنا الى حرب عدو وعرفنا ان المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه * فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام * متخوف طلب السلامة منه فاعتزل عنه فالتزم ترك الملامة وان لم يكتسب المحمدة * ومتهور قدم على غير بصيرة فجرحه العدو وقهره واستجلب بذلك سخط ربه * وشجاع أقبل على بصيرة فقاتل وابلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز * واني لما وجدتني ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين * فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن من أكرمهم عند الله — وهذا الكلام يكشف عن حقيقة الامر فيه وينبه على صحة ذلك قوله

تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض) وانما يمكن الاحسان بادخال السرور على قلوب المسلمين بالمال ولكن الخطر فيه عظيم فانه ربما يشتغل من ضعفت بصيرته بما فيه ضرره من حيث لا يدري فلخطره وجبت المبالغة في الزجر عنه

(الوظيفة الخامسة) ان تكون نيته صالحة في الاخذ والترك فيأخذ ما يأخذه ليستعين به على العبادة ويأكل ليتقوى به على العبادة ويترك ما يتركه زهداً فيه واستحقاراً له فقد قال عليه السلام (من طلب رزقه على ما سن فهو جهاد) وقال عليه السلام لابن مسعود (ان المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة يضعها في فم امرأته) وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الامور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله والاستعانة على سلوك طريقه * وعند هذا يتبين انه ليس الزاهد من لا مال له بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال وان كان له أموال العالمين ولذلك قال علي رضي الله عنه لو ان رجلا أخذ جميع ما في الارض وأراد به وجه الله فليس براغب * فليكن جميع حركاتك وسكناتك لله بان تكون حركتك مقصورة على عبادة أو على ما يعين على عبادة ولا يستغني العباد عنه كالأكل وقضاء الحاجة مثلا فانهما معينان على العبادة وهما ابعد الحركات عن العبادة وعند هذا يكون الكامل النفس في تناول الدنيا كالراقي الحاذق في مس الحية متقيا سمها ومستخرجاً جوهرها * والعامي اذا تشبه به ونظر

اليه ظن انه [1] أخذها مستحسنا شكلها وصورتها مستلينا مسها مستصحبا اياها * فاذا ظن ذلك أخذها وتقلدها فقتلته وقدشبهت الدنيا بها فقيل الدنيا كحية تنفث السموم النواقع وان لان ملمسها وكما يستحيل ان يتشبه الاعمى بالبصير في تخطي قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال ان يتشبه العامي بالكامل في تناول الدنيا — واذا تؤمل ملك سليمان وما أوتي مع رتبة النبوة علم ان الزهد زهد النفس لا خلو اليد وكيف تضر الدنيا بالانبياء والاولياء وهم يعرفون ضرها ونفعها ورتبتها في الوجود ويعلمون ان للانسان في وجوده ثلاث منازل (منزلة في بطن أمه) (ومنزلة في فضاء العالم) (ومنزلة بعد الموت) والدنيا في مثال رباط بني — وينتهي اليه المسافر في المنزل الاوسط * وقد هيئت فيه أسباب واوان وأقوات ليستعين بها المسافر وينتفع بها انتفاعه بالعارية والمنحة ويخليها لمن يلحق بعده فيأخذها بشكر ويتركها بانشراح صدر * وقد انتهى الرباط جماعة من الحمقى فظنوا ان هذا المنزل وطن وان هذه الاسباب ليست عارية وانما هي موهبة مؤبدة فصاروا لا يخرجونها من أيديهم الا بكسر اليد ونزع الروح * وقيل ان مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا كمثل رجل هيأ داراً وهو يدعو أقواما الى داره على الترتيب واحداً بعد واحد فأدخل واحداً داره فقدم اليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا

(١) قوله انه أي الراقي والضمير في ظن للعامي

مطلوبة بالاضافة الى ماهو شر منها وكأنها منازل وأطوار الآدمي يرتقي فيها واحداً واحداً ولا يمكن الخلاص الا بهذا التدريج * فليراع ذلك في كل صفة استولت على النفس واشتدت علاقتها وبقطع العلائق تمحى الغموم *

﴿ بيان نفي الخوف من الموت ﴾

للانسان حالتان حالة قبل الموت * وحالة بعد الموت * أما قبل الموت فينبغي أن يكون الانسان فيها دائم الذكر للموت كما قال عليه السلام (اكثروا من ذكر هازم اللذات فانه ماذكره أحد في ضيق الا وسعه عليه ولا في سعة الا ضيقها عليه) والناس فيها قسمان* غافل وهو الاحمق الحقيقي الذي لايتفكر في الموت وما بعده الا نظراً في حال أولاده وتركاته عند موته ولا ينظر ويتدبر في أحوال نفسه ولكن لايتذكر إلا اذا رأى جنازة فيقول بلسانه (انا لله وانا اليه راجعون) ولا يرجع الى الله عز وجل بافعاله الا باقواله فيكون كاذباً في أقواله تحقيقاً * وأما العاقل الكيس فلا يفارقه ذكر الموت كالمسافر الى مقصد الحاج مثلا فانه لايفارقه ذكر المقصد * واشتغال المنازل في الحط والترحال لاتنسيه مقصوده* وعلى الجملة فذكر الموت يطرد فضول الامل ويكف غرب المنى فتهون المصائب ويحول بين الانسان وبين الطغيان* ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق والمبادرة الى التوبة وترك المحاسدة والحرص على

الدنيا والنشاط في العبادة * وينبغي أن يكون المتراخي عن عبادته ألا يصبح يوماً الا ويقدر انه سيموت تقديراً للموت العاجل فانه ممكن * ومهما قدر الموت بعد سنين لم يحرص على العبادة ولم تفتر رغبته في الدنيا بل لاينبغي أن يهمل نفسه اكثر من يوم فيصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة نهاراً * فكل من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كل ساعة فينبغي ان يكون مستعداً للاجابة فان لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل فيحرم عن السعادة * وما من وقت الا ويرى فيه الموت ممكناً * فان قلت الموت فجأة بعيد * قلت فاذا وقع المرض فالموت غير بعيد — وذلك يمكن في أقل من يوم ولايكون بعيداً واما الاغتمام لاجل الموت فليس من العقل ايضاً فان ذلك الغم لايخلو من اربعةأوجه * إما لشهوة بطنه وفرجه * وإما على مايخلفه من ماله * وإما على جهله بحاله بعدالموت ومآله * وإما لخوفه على ماقدمه من عصيانه * فان كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه فهو كمشتهي داء ليقابله بداء مثله فان معنى لذة الطعام إزالة ألم الجوع — ولذلك اذا زال الجوع وامتلأت المعدة كره عين ما اشتهاه كمن يشتهي القعود في الشمس لينالهالحر حتى يتلذذ بالرجوع الى الظل وكمن يشتهي الحبس في حمام حار ليدرك لذة ماءالثلج اذا شربه وهو عين الرقاعة والخرق وان كان ذلك على مايخلفه من ماله فهو بجهله بخساسة الدنيا وحقارتها بالاضافة الى الملك الكبير والنعيم المقيم الموعود للمتقين وان كان ذلك لجهله بعاقبة أمره بعد الموت

يستحقها لم يغتم به وان كان لايستحقها فوبالها عليه أكثر من نفعها * فاما ان كان الغم في الامر المستقبل فان كان على أمر ممتنع كونه أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال * وان كان ممكنا كونه نظر فان كان لايقبل الدفع كالموت قبل الهرم فالحزن له حماقة * وان كان قابلا للدفع فلا معنى للغم بل ينبغي أن يحتال للدفع بعقل غير مشوب بحزن * فاذا فعل ماقدر عليه من تمهيد حيل الدفع بقي ساكن القلب منتظراً اقضاء الله وقدره عالماً بانه لامرد لما قضاه فيتلقاه بصبر ان لم يندفع ويتحقق ان ماقدر فهو كائن ويتذكر قوله تعالى (ماأصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها) الآية وانما حرص الناس على تهيئة اسباب الدنيا منشأه الغرور وحسن الظن بانحسار الآفات وتقدم صفاء الاوقات وهيهات ثم هيهات قال علي رضي الله عنه ماقال الناس لقوم طوبى لكم الا وقد خبأهم الدهر ليوم سوء وصدق الشاعر فيما قال

إن الليالي لم تحسن الى أحد * الا اساءت اليه بعد احسان

وما قصر أبو منصور الثعالبي في وصف الدنيا حيث قال

تسل عن الدنيا ولا تخطبنها

ولا تخطبن قتالة من تناكح

فليس يفي مرجوها بمخوفها

ومكروهها لما تدبرت راجح

لقد قال فيها الواصفون فاكثروا

وعندي لها وصف لعمري صالح

سلاف قصاراه زعاف ومركب

شهي اذا استلذذته فهو جامح

وشخص جميـــل يونق الناس حسنه

ولــكن له أسرار سوء قبائح

فالعاقل اذا أمعن النظر في هذه الامور خف على قلبه اكثر الغموم إلا اذا كانت العلاقة قد استحكمت بينه وبين معشوق من آدمي أو مال أو عقار أو حرفة أو رياسة أو ولاية أو أمر من الامور فلا خلاص له عن غمومها إلا بعد قطع العلائق عنها * ولا يمكن ذلك الا بكف النفس عنها تدريجاً والاشتغال بغيرها وان كان ذلك الغير أيضاً مما يجانسها في وجوب التباعد عنه ولــكن لا بأس بغسل الدم بالدم اذا كان الاول أشد لصوقاً والتزاقاً — وهذه من دقائق الرياضات فان النزوع عما وقع الالف به دفعة واحدة عسر بل ممتنع — ولذلك يرقى الصبي الذي يعلم الادب بالترغيب في اللعب بالصولجان والطيور * ثم يكف عن اللعب بالترغيب في الثروة والمال والتزيين بالثياب الجميلة وغيرها * ثم يرقيه من ذلك بالترغيب في المحمدة والثناء ونيل الــكرامة والرئاسة * ثم يرقيــه بالترغيب في سعادة الآخرة ويكون الرئاسة آخر مايخرج من رؤوس الصديقين ولقد كانت هذه المعالجة بامور محذورة في نفسها ولــكن

ليتماسكه فيجهل رسمه فظن انه وهب له فلما استرجع منه ضجر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بانشراح صدر * فهذه وظائف المباشرة لاموال الدنيا *

* بيان الطريق في نفي الغم في الدنيا *

مهما كان الانسان آمنا في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا امارة نقصانه وحماقته فان غمه ليس يخلو اما ان يكون تأسفاً على ماض أو خوفا من مستقبل أوحزناً على سبب حاضر في الحال * فان كان على فائت فالعاقل بصير بأن الجزع على ما فات لا يلم شعثاً ولا يرم ما انتكث * وما لا حيلة له فالغم عليه خرق * ولذلك قال تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم) وقال الشاعر * وهل جزع مجد علي فأجزعا * وان كان على حاضر فاما ان يكون حسدا لوصول نعمة الى من يعرفه أو يكون حزنا للفقر وفقدان المال والجاه وأسباب الدنيا * وسبب هذا الجهل بغوائل الدنيا وسمومها ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخففين دون المثقلين ولو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يعشقه لم يعشقه اذ يعلم ان الدنيا حالة المصائب كدرة المشارب تورث للبرية أنواع البلية مع كل لقمة غصة فما أحد فيها الا وهو في كل حال غرض لاسهم ثلاثة سهم نقمة وسهم رزية وسهم منية *

(تناضله الاوقات من كل جانب * فتخطاه طورا وطورا تصيبه)

فمن كان معتبرا بما يتجدد كل يوم من ارتجاع النعم من اربابها وحلول الفوارع بأصحابها وشدة اغتمامهم بفقدها لم يتأسف على فواتها — ولذلك قيل لبعضهم لم تغتم قال لأني لا أقتني مايغمني فقده * ومهما أمعن الانسان فكره في غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة وكثرة مصائبهم فيها تسلى عنها وهان عليه تركها * وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم ان يحضر دار المرضى (أي البيمارستان) ليشاهدهم ويشاهد علاجهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان أيضاً ويشاهد أرباب الجنايات ومحنهم لاقامة العقوبات وأيضاً يحضر المقابر فيشاهد أرباب العزاء واسفهم على مالاينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود الى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من كل البلايا وحق للانسان في الدنيا أن ينظر ابداً ماعاش الى من هو دونه ليشكر وفي الدين الى من هو فوقه ليشمر والشيطان اذا استولى نكس هذا النظر وعكسه * فاذا قيل له لم تتعاطى هذا الفعل القبيح اعتذر بان فلانا يتعاطى ماهو اكبر منه مع أنه ليس في المعصية ولا في الكفر مناظرة — واذا قيل له لم لاتقنع بهذا الموجود فيقول فلان أغنى مني فلم أصبر على ماليس يصبر عنه * وهذا عين الضلال والجهل المحض * ومهما التقى الهم بهذا العائق بطل غم الحسد * فمن انعم الله عليه بنعمة فان كان

البدنية المستولية على الناس مثل الغرماء الآخذين بمخنقه والسباع العادية الطالبة لاقواتها فاذا محاها ودفعها فقد دفع العلائق وبعده يستعد لابتداء السلوك بل هو كمعتدة تطمع أن ينكحها الخليفة فاذا قضت عدتها المانعة من صحة النكاح ظنت ان الامور قد تمت وهيهات فلم يحصل منها الا الاستعداد للقبول بدفع المانع وبقي اقبال الخليفة وانعامه بالرغبة — وذلك رزق إلهي فما كل من تطهر وصل الى الجمعة ولا كل من قضت عدتها وصلت الى كل ما أرادت * فان قلت فهل تنتهي رتبة السالك الى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الامور (فاعلم) ان هذا عين الغرور وان المحققين قالوا لو رأيت انسانا يمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم انه شيطان وهو الحق * وذلك ان الشريعة حنيفية سمحة فمهما مست حاجة أو حصلت ضرورة كان للشرع فيها رخصة فمن جاوز محل الرخصة فلا يكون عن ضرورة بل عن هوى وشهوة * والانسان مادام في هذا العالم لا يأمن استيلاء الشهوة وعودها الى القهر بعد الانقهار فينبغي أن يأخذ منها حذره فلا يتصور أن يدعو الى مخالفة الشرع الا طلب رفاهية ودعة أو نوع شهوة أو نوع كسل وكل ذلك يدل على التضمخ بالاخلاق الردية المتقاضية لها فمن زكى نفسه وغذاها بغذاء العلوم الحقيقية قوي في المواظبة على العبادة بل صارت الصلاة قرة عينه وصارت خلوة الليل أطيب

الاشياء عنده لمناجاة ربه — فهذه العلامة لابد منها في اول المنازل وتبقى الى آخرها وان لم يكن لمنازل السير الى الله تعالى نهاية * وانما الموت يقطع طريق السلوك فيبقى كل انسان بعد الموت على الرتبة التي حصلها في مدة الحياة إذ يموت المرء على ما عاش عليه (العلامة الثانية) أن يكون حاضر القلب مع الله في كل حال حضوراً ضرورياً غير متكلف بل حضوراً يعظم تلذذه وأن يكون الحضور انكساراً وضراعة وخضوعاً لما انكشف عنده من جلال الله وبهائه ولايفارق ذلك في أطواره وأحواله وان اشتغل بضروريات بدنه من تناول طعام وقضاء حاجة وغسل ثوب وغيره بل يكون مثاله في جميع الاحوال مثال عاشق سهر في انتظار معشوقه مدة وتعب فيه زماناً ثم قدم عليه معشوقه فاستبشر به فاستولى عليه قضاء حاجته فلزمه ضرورة مفارقته وقصد بيت الماء فيفارقه ببدنه مضطراً والقلب حاضر عنده حضوراً لو خوطب في أثناء ماهو فيه لم يسمعه لشدة استغراق فكره بمعشوقه ولا يكون ماهو فيه صارفاً عن قرة عينه وهو مكره فيه * فالسالك ينبغي أن يكون كذلك في أشغاله الدنيوية بل لايكون له شغل سوى ضروريات بدنه وهو في ذلك مصروف القلب الى الله عز وجل مع غاية الاجلال والتواضع * واذا لم يبعد أن تتحرك شهوة الجماع تحريكا هذه صفته عند من استولى عليه الشهوة ووقع في عينه جمال صورة آدمي خلقت من نطفة قذرة مذرة ويصير على القرب جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل

الذي اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامه من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ولا يبعد أن يكره الانسان مفارقة شيء ثم اذا فارقه لا يتأسف عليه فالصبي وقت الولادة يبكي لما يناله من ألم الانتقال ثم اذا عقل لم يتمن العود اليه * والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل بشرط أن لا يكون قد تقدم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحل للكمال كما ان الولادة سبب لكمال مضبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط أن لا يكون قد تمكن في رحم الام من الاسباب والعلل والعوارض ما منع قبول الكمال ولكون الموت سبب كمال قال بعضهم ينبغي أن يكون دعاؤنا لعزرائيل عليه السلام وشكرنا له مثل دعائنا لجبرائيل وميكائيل واسرافيل فان جبرائيل وميكائيل هما سببان لاعلامنا بما فيه خلاصنا من الدنيا ونجاتنا في الآخرة — وذلك بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم * وملك الموت سبب اخراجنا الى ذلك العالم فحقه عظيم وشكره لازم * وقد حكي عن طائفة من حكماء الامم السابقة انهم كانوا يعظمون رجلا بالتقديس والتسبيح من حيث اعتقدوا انه لا يعين على الحياة العرضية بل هو سبب للهلاك الذي به الخلاص من هذه الدنيا الدنية *

﴿ بيان علامة المنزل الاول من منازل السائرين الى الله تعالى ﴾

(اعلم) ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير * ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك وتعتبر بهما نفسك وغيرك

(فالعلامة الاولى) أن يكون جميع افعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيفاته ايراداً واصداراً واقداماً واحجاماً اذ لا يمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولا يمكن ذلك الا بعد تهذيب الاخلاق كما وصفنا من قبل ولا يتوصل الى ذلك الا اذا ترك جملة من المباحات فكيف يتأتى لمن لم يهجر المحظورات ولم يتوصل اليه مالم يواظب على جملة من النوافل فكيف يصل اليه من أهمل الفرائض بل الشرع في تكاليفه العالم اقتصر على فرائض ومحظورات يشترك فيها عوام الناس بحيث لا يؤدي الاشتغال بها الى خراب العالم * والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اعراضاً لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم فكيف ينال بمجرد الفرائض والواجبات اقصى أعاليها دون النوافل * ولذلك قال تعالى (لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وبي يبصر) وعلى الجملة لا يدعو الى اهمال الفرائض واقتحام المحظورات الا كسل لازب أو هوى غالب * وكيف يسلك سبيل الله من هو يعد في اسراء الكسل والهوى * فان قلت فسالك سبيل الله من خاض في مجاهدة الكسل والهوى فأما من فرغ من قهرهما فهو واصل لا سالك فيقال هذا عين الغرور وجهل بالطريق والمقصد جميعاً بل لو محى جميع الصفات الردية عن نفسه كان نسبته الى المقصود نسبة من يقصد الحج وله غرماء متشبثون بأذياله فقضى ديونهم وقطع علائقهم فان الصفات

فعليه أن يطلب العلم الحقيقي الذي يكشف له حال الانسان بعد موته كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم كأنى انظر الى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها والى اهل النار يتلاعنون فيها * وهذا العلم انما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس وماهيتها ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التي خلقت لها ووجه التذاذه بخاصيته وكماله مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله * وقد نبه الشرع عليه في مواضع كثيرة وأمر بالتفكر في النفس كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والارض وان كان ذلك لما سبق من عصيانه فلا ينفع الغم فيه بل المداواة وهو المبادرة الى التوبة واصلاح ما فرط من أمره بل مثاله في الاغتمام وترك التدارك مثل من فتح عرق من عروقه وقد خرج بعض دمه وهو قادر على تعصيبه وحفظ حشاشه فأهمله وجلس متأسفا على خروج ما خرج من دمه وذلك ايضا من الحماقة فان الفائت لا تدارك له ولا ينفع فيه التأسف فليشتغل بالمستقبل (الحالة الثانية) حال الانسان عند الموت والناس عنده ثلاثة أقسام (الاول) ذو بصيرة علم ان الموت يعتقه والحياة تسترقه وان الانسان وان طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ثم عادت الاختفاء فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا الا بقدر ما يفوت من خدمة ربه عز وجل والازدياد من تقربه والاشفاق مما يقول او يقال له كما قال بعضهم لما قيل له لم بجزع قال لاني أسلك طريقاً لم أعهده وأقدم على رب

لم أره ولا ادري ماأقول ومايقال لي * ومثل هذا الشخص لاينفر من الموت بل اذا عجز عن زيادة العبادة ربما اشتاق اليه وقال بعضهم في مناجاته إلهي ان سألتك الحياة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك وزهدت في القرب منك فقد قال نبيك وصفيك صلى الله عليه وسلم (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه) (والثاني) رجل رديء البصيرة متلطخ السريرة منهمك في الدنيا منغمس في علائقها رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور فاذا خرج الى دار الخلود أضر به كما تضر رياح الورد بالجعل * واذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ومصباح الملأ الاعلى فكان كما قال الله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فان الدنيا سجن الاول وجنة الثاني (والاول) كعبد دعاه مولاه فأجابه طوعاً فتقدم عليه مسروراً بتوفره على الخدمة (والثاني) كعبد آبق رد الى مولاه مأسوراً وقيد الى حضرته مقهوراً فيبقى ناكس الرأس بين يدي مولاه مختزياً من جنايته وشتان ما بين الحالين (والقسم الثالث) رتبة بين الرتبتين رجل عرف غوائل هذا العالم وكره صحبته ولكن أنس به وألفه فسبيله سبيل من ألف بيتاً مظلماً قذراً ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه وان كان قد كره دخوله * فاذا خرج ورأى ما أعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره فواته بل قال (الحمد لله

الحذرة فكيف يتعذر ذلك في ادراك جلال الله وجماله الذي لانهاية له * وعلى الجملة فلا يتم سلوك هذا الطريق الا بحرص شديد وارادة تامة وطلب بليغ * ومبدأ الحرص والطلب ادراك جمال المطلوب الموجب للشوق والعشق * ومبدأ درك جمال المطلوب النظر وتحديق بصر العين نحوه اعراضاً عن سائر المبصرات — فكذلك بقدر ما يلوح الك من جلال الله عز وجل ينبعث شوقك وحرصك وبحسبه يكون سعيك وانبعاثك * ثم قد يزداد العشق بطول الصحبة اذا كان يلوح في اثنائها محاسن اخلاق كانت خفية من قبل فيتضاعف العشق فكذلك مايلوح من بهاء الحضرة الالهية وجلالها في أول الامر ربما كان ضعيفاً بضعف ادراك المريد المبتدى ولكن ينبعث منه طلب وشوق فلا يزال يواظب على الفكر في ذلك الجمال بسببه فيطلع على مزايا فيتضاعف في كل وقت عشقه وكما يطلب العاشق القرب من معشوقه — فكذا المريد يطلب القرب من الله تعالى لا أن ذلك قرب بمكان أو بتماس سطوح الاجسام أو بكمال جمال صورة بان يصير مبصراً حاضراً في القوة الباصرة صورته — وهذا القرب قرب الكمال لا في المكان والامثلة لاتخيل من هذه المعاني الاشيئاً بعيداً ولكن تشبيه ذلك بعشق التلميذ استاذه وطلبه القرب منه في كماله أصدق في التخيل فانه يتقرب اليه بحركته في التعلم ولا يزال يقرب منه قليلا قليلا وغايته رتبته * وقد يكون ذلك ممكنا وقد

يكون في بعض الاحوال متعذراً ولكن الترقي من الرتبة التي هو بسببها في البعد ممكن فيزداد قربا بالنسبة والبلوغ ههنا غير ممكن* ولكن السفر عن أسفل السافلين بقصد جهة العلو ممكن * وقد يكون المثل في عين التلميذ رتبة مقيدة لأأنه يتابس بعشق رتبة أستاذه ولكن يشتاق الى الترقي درجةدرجةفلايتشوق الى الاقصى دفعة — فاذا نال تلك الرتبة طمحت عينه الى مافوقها — فكذلك من ليس عالما ينبغي له التشبه بالعلماء الذين هم ورثة الانبياء * والعلماء يتشبهون بالاولياء والانبياء بالملائكة حتى تمحى عنهم الصفات البشرية بالكلية فينقلبون ملائكة في صورة الناس * والملائكة أيضاً لهم مراتب والاعلى مرتبة معشوق الادنى ومطمح نظره والملائكة المقربون هم الذين ليس بينهم وبين الاول الحق واسطة ولهم الجمال الاطهر والبهاء الاتم بالنسبة الى من دونهم من الموجودات الكاملة البهية * ثم كل كمال وجمال بالنظر الى جمال الحضرة الربوبية مستحقر — فهكذا ينبغي ان يعتقد التقرب الى الله عز وجل لا بأن تقدره في بيت في الجنة فتقرب من باب البيت فيكون قربك بالمكان تعالى عنه رب الارباب ولا بان تهدى اليه هدية بعبادتك فيفرح بها ويهتز لها فيرضى عنك كما يتقرب الى الملوك بطلب رضاهم وتحصيل اغراضهم فيسمي ذلك تقربا تعالى الله وتقدس عن المعنى الذي يتصف الملوك به من السخط والرضى والابتهاج بالخدمة والاهتزاز للخضوع والانقياد والفرح بالمتابعة *

واعتقاد جميع ذلك جهل فان قلت فقد اعتقد أكثر العوام ذلك فما أبعد عن التحصيل من يطالب العنبر من دكان الدباغ وكيف تطمع في رتبة وأنت تعرف الحق بالرجال بل أنت تعرف الحق بالحمر فلا فرق بين العوام الذين لم يمارسوا العلوم وبين حمر مستنفرة فرت من قسورة أما تراهم كيف اعتقدوا في الله تعالى انه جالس على العرش تحت مظلة خضراء الى تمام مااعتقدوه في المشتبهات فأكثر الناس مشبهة ولكن التشبيه درجات * منهم من يشبه في الصورة فيثبت اليد والعين والنزول والانتقال * ومنهم من يثبت السخط والرضى والغضب والسرور والله تعالى مقدس عن جميع ذلك * وإنما أطلقت هذه الالفاظ في الشرع على سبيل وبتأويل يفهمها من يفهمها وينكرها من ينكرها ولو تساوى الناس في الفهم لبطل قوله عليه السلام (رب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه) ولنتجاوز هذا الكلام فانه سلسلة المجانين ويحل قيود الشيطان *

﴿ بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه ﴾

لعلك تقول كلامك في هذا الكتاب انقسم الى مايطابق مذهب الصوفية والى مايطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ولايفهم الكلام الا على مذهب واحد فما الحق من هذه المذاهب فان كان الكل حقاً فكيف يتصور هذا وان كان بعضه حقاً فما

ذلك الحق * فيقال لك اذا عرفت حقيقة المذهب لاتنفعك قط
اذ الناس فيه فريقان * فريق يقول المذهب اسم مشترك لثلاث
مراتب (احداها) مايتعصب له في المباهاة والمناظرات (والاخرى)
مايسار به في التعليمات والارشادات (والثالث) مايعتقده الانسان
في نفسه مما انكشف له من النظريات * ولكل كامل ثلاثة مذاهب
بهذا الاعتبار * فاما المذهب بالاعتبار الاول فهو نمط الآباء والاجداد
ومذهب المعلم ومذهب أهل البلد الذي فيه النشوء وذلك يختلف
بالبلاد والاقطار ويختلف بالمعلمين * فمن ولد في بلد المعتزلة أو
الاشعرية أو الشفعوية أو الحنفية انغرس في نفسه منذ صباه التعصب
له والذب دونه والذم لما سواه * فيقال هو أشعري المذهب أو معتزلي
أو شفعوي أو حنفي * ومعناه أنه يتعصب أي ينصر عصابة
المتظاهرين بالموالاة ويجري ذلك مجرى تناصر القبيلة بعضهم
لبعض * ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة
باستتباع العوام ولا تنبعث دواعي العوام الا بجامع يحمل على التظاهر
فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعاً فانقسم الناس فرقاً
وتحركت غوائل الحسد والمنافسة فاشتد تعصبهم واستحكم به تناصرهم
وفي بعض البلاد لما اتحد المذهب وعجز طلاب الرياسة عن الاستتباع
وضعوا أموراً وخيلوا وجوب المخالفة فيها والتعصب لها كالعلم
الاسود والعلم الاحمر فقال قوم الحق هو الاسود وقال آخرون
لا بل الاحمر وانتظم مقصود الرؤساء في استتباع العوام بذلك القدر

من المخالفة وظن العوام ان ذلك مهم وعرف الرؤساء الواضعون غرضهم في الوضع (المذهب الثاني) ماينطبق في الارشاد والتعليم على من جاءه مستفيداً مسترشداً — وهذا لايتعين على وجه واحد بل يختلف بحسب المسترشد فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه فان وقع له مسترشد تركي أو هندي أو رجل بليد جلف الطبع وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته في مكان وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه لم يلبث ان ينكر وجود الله تعالى ويكذب به فينبغي أن يقرر عنده أن الله تعالى على العرش وانه يرضيه عبادة خلقه ويفرح بها فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاء * وان احتمل ان يذكر له ماهو الحق المبين يكشف له فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ويكون مع كل واحد على حسب مايحتمله فهمه (المذهب الثالث) مايعتقده الرجل سراً بينه وبين الله عز وجل لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه — وذلك بان يكون المسترشد ذكياً ولم يكن قد رسخ في نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ولم يكن قد انصبغ به قلبه انصباغاً لايمكن محوه منه ويكون مثاله كـكاغد كتب عليه ماغاص فيه ولم يمكن ازالته الا بحرق الكاغد وخرقه — فهذا رجل فسد مزاجه ويئس من صلاحه فان كل مايذكر له على خلاف ماسمعه لايقنعه بل يحرص على أن لا يقنع بما

يذكر له ويحتال في دفعه * ولو أصغى غاية الاصغاء وانصرفت همته الى الفهم لكان يشك في فهمه فكيف اذا كان غرضه أن يدفعه ولا يفهمه فالسبيل مع مثل هذا أن يسكت عنه ويترك على ماهو عليه فليس هو بأول أعمى هالك بضلالته — فهذا طريق فريق من الناس * وأما الفريق الثاني وهم الاكثرون يقولون المذهب واحد هو المعتقد وهو الذي ينطق به تعلما وارشاداً مع كل آدمي كيفما اختلفت حاله وهو الذي يتعصب له وهو إما مذهب الاشعري أو المعتزلي أو الكرامي أو أي مذهب من المذاهب والاولون يوافقون هؤلاء على انهم لو سئلوا عن المذهب انه واحد أو ثلاثة لم يجز أن يذكر انه ثلاثة بل يجب أن يقال انه واحد وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ان كنت عاقلا فان الناس متفقون على النطق بأن المذهب واحد * ثم يتفقون على التعصب لمذهب أبيهم أو معلمهم أو أهل بلدهم ولو ذكر ذاكر مذهبه فما منفعتك فيه ومذهب غيره يخالفه وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه فجانب الالتفات الى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائداً يرشدك الى طريق وحواليك الف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل * وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص الا في الاستقلال

(خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به
في طالع الشمس مايغنيك عن زحل)

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث
لتنتدب للطلب فناهيك به نفعاً إذ الشكوك هي الموصلة الى
الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم
يبصر بقي في العمى والضلال نعوذ بالله من ذلك
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(تتمة لمصحح الكتاب)

أيا طلاب العلوم العقلية * ويا عشاق المعارف الدينية * هلموا إليّ واصغوا أسماعكم نحوي * فها هو قد ظهر الكتاب الذي هو نبراس السعادة ومصباح الهدى * وعلم الحق المنير * ألا وهو كتاب (ميزان العمل) للامام الهمام حجة الاسلام ابو حامد محمد الغزالي الذي عرف فضله الخاص والعام من جميع الانام * هذا هو الكتاب الجامع للعقل والنقل المحتوي على تطبيق العلم البرهاني بالدين الاسلامي * في موضوع الاعمال الموصلة الى دار الجلال * وفي غيره من مواضيع شتى فهو كصاحبه فرد في محاسنه * وذلك لا يخفى على من عرف الميزة التي امتاز بها ذلك الامام عن غيره من الأئمة من صحة علمه الصادر عن فرط ذكائه وقوة عقله الفائض عن غاية اخلاصه * وقد تنبه لعظم قدر الرجل عند العموم القائم بنشر كتابه (الاربعين في أصول الدين) وجواهر القرآن ومعيار العلم ومقاصد الفلاسفة وموعظة المؤمنين من احياء علوم الدين حضرة الشيخ محيي الدين صبري الكردي الكانيمشكاني فتحركت همته لطبع هذا الكتاب (ميزان العمل) ولما كانت النسخة التي أراد الطبع على موجبها هي مما استنسخته من احدى الكتبخانات العالية في عنفوان العمر وكان له حسن ظن بمعرفتي هذا الفن (فن الاخلاق) التمس مني مساعدته في تصحيحه فلواجب الخبرة قمت مع النشاط التام

والتحري الكامل بتصحيحه ساهراً الليالي باذلا نفيس الوقت في تحريره وتخليصه حتي جاء على غاية المرام * لا عيب فيه إلا انه في نهاية الصحة والاستقامة * يسترسل القاريء في تلاوته بلا أدنى توقف * ويستعذب سهولة المعنى لتمام جمله وقيام تراكيبه الصحيحة بذلك ولو يعلم القاريء مابذلناه في تصحيحه لأيقن بأنا والحمد لله أخرجناه من العــدم الى الوجود يتحقق ذلك من يكلف نفسه بمقارنته بأي نسخة توجد (هذا) ولعمر الحق انا لو رأينا رواجاً للكتب النافعة النفع الحقيقي لنقوم بخدمة الجمهور خدمة تنفعهم في الدنيا والآخرة معاً * وبالجملة نسأله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير الصرف انه سميع مجيب   انتهى مصححه (ا ــ ع)

فهرس كتاب

ميزان العمل

للامام حجة الاسلام ابي حامد الغزالي

صفحة

﴿ تمت الفهرست ﴾

بيان الكتب المطبوعة على نفقتنا

١٥ موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين . لجمال الدين القاسمي
٠٧ ميزان العمل لحجة الاسلام الغزالي .
١٠ معيار العلم في المنطق له ايضا .
١٠ مقاصد الفلاسفه في المنطق والالهيات والطبيعيات له ايضا .
٠٥ جواهر القرآن ودرره له ايضا .
١٥ النجاة لابن سينا في المنطق والالهيات والطبيعيات .
٠٨ جامع البدايع يحتوي على ١٨ رسالة لابن سينا وعمر الخيام .
٠٦ جوامع الآداب في اخلاق الانجاب لجمال الدين
٠٣ هياكل النور للسهروردي .
٠٤ سلوك المالك في تدبير الممالك .
١٢ شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون في الأدب والتاريخ .
٠٦ كتاب الورع للامام احمد بن حنبل .
٣٠ مجموعه الرسائل اغلبها للغزالي وابن سينا .
٠٣ الرسالة اللدنيه لحجة الاسلام الغزالي .
١٠ مجموعة الرسائل تأليف ابو الفضائل . في الحكمة والفلسفة
٠٨ مقالة سائح في تاريخ البهائية

٤٢٣٩غ

DUE DATE

14 JAN 67

24 AUG 61

2 FEB 62

11 OCT 62

DATE	No.	DATE	No
			33
	33		33
			908
	33		
			1422